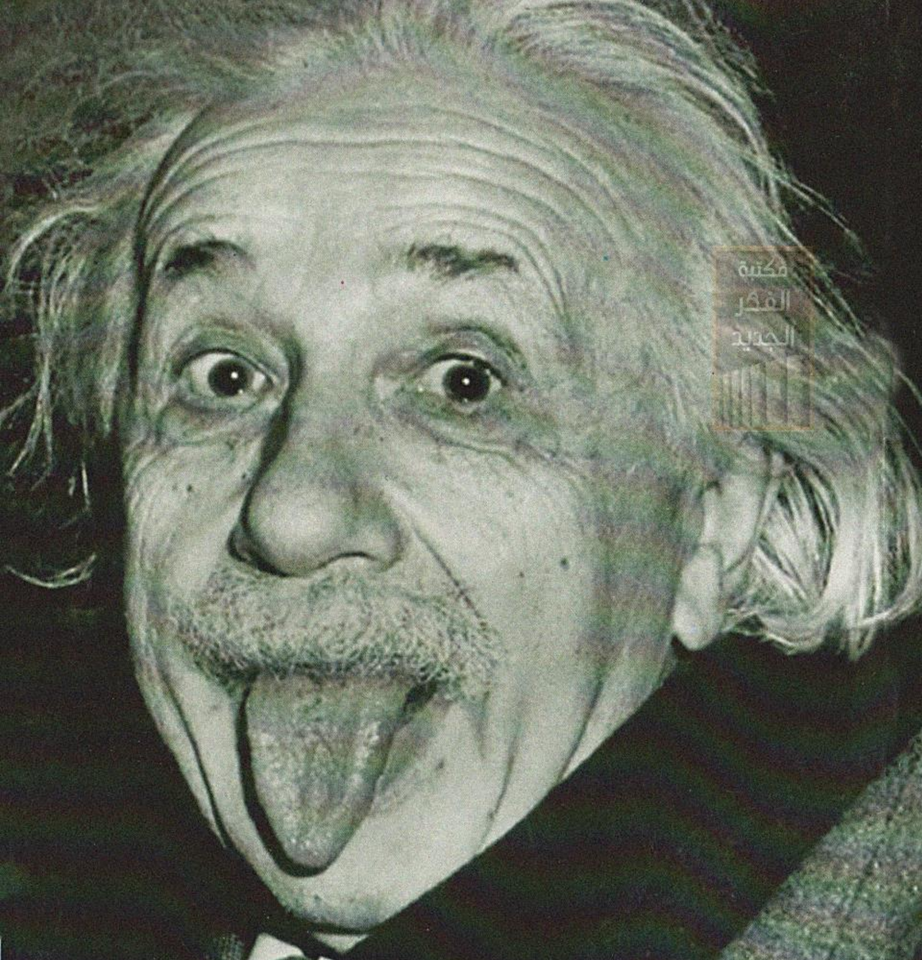


ألبرت أينشتاين

العالم كما أراه

ترجمة : فاروق الحميد

التكوين

ألبرت أينشتاين

العالم كما أراه

ترجمة

فاروق الحميد

التكوين

ALBERT EINSTEIN
Comment je vois le monde
الطبعة الأولى **2015**

هاتف: 00963 112236468
فاكس: 00963112257677
ص. ب: 11418، دمشق . بيروت
www.attakwin.com
taakwen@yahoo.com

تمهيد

هذا الكتاب ليس مجموعة للمقالات، والخطب، والتصريحات التي نشرها «ألبرت أينشتاين»، بل هو بالأحرى نخبة منتقاة محدَّدة المعنى: إنَّه رسم الصورة الحقيقية لهذه الشخصية التي تجد نفسها اليوم على الرغم من نيَّتها السليمة ملقاة في دوَّامة الأهواء السياسية والتاريخ المعاصر.

هكذا عانى «أينشتاين» المصير الذي طالما قُدِّر للرجال العظام في التاريخ، لأنَّ صفاتهم وطرائقهم في رؤية الأشياء تبدو أمام الجماهير مشوَّهة تماماً! غاية هذا الكتاب هو أن نمنع حدوث مثل هذا الأمر!

تلبي مجموعة المقالات هذه رغبة كثير من أصدقاء العالِم والجماهير العريضة على عدَّة مستويات، فهي تحتوي على أعمال تعود إلى أزمنة مختلفة:

مقالة «عالمية العلم» يرجع تاريخها إلى عام [1922]، بينما خطابه حول «مبادئ البحث» فكان عام [1923]، في حين أنَّ «رسالة إلى عربي» فتاريخها يعود إلى عام [1930]، وهو في جميع هذه المقالات والخطب يبحث في المجالات الأكثر تنوُّعاً، حيث الصلة الوحيدة التي تربط بينها هي وحدة الشخصية التي تبدو خلف جميع هذه التصريحات.

لقد آمن «أينشتاين» بالإنسان، بعالم سلمي يسوده التعاون، بالمهمَّة العليا للعلم..

كتابنا هذا يأتي دعماً لهذا الإيمان في عصر يفرض على كلِّ إنسان تفحُّص عواطفه، وأفكاره.

* * *

الفصـل الأول

في معنى الحياة

ما معنى وجودنا، وما معنى وجود جميع الكائنات الحيَّة عامَّة؟

تتطلَّب معرفة الإجابة عن هذا السؤال عواطف دينية، أنت تسألني:

- طرح مثل هذا السؤال، هل له معنى عندنا؟ أجيب:

- كلُّ من يشعر أنَّ حياته بالذات، وحياة البشر مثله لا معنى لها، ليس بائساً فحسب، بل هو قادر على البقاء، ولكن بصعوبة بالغة!

لا أؤمن أبداً، بالمعنى الفلسفيٍّ للكلمة، بحريَّة الإنسان، فكلُّ واحد منَّا يتصرَّف ليس فقط مدفوعاً بضغط خارجي، ولكن أيضاً من خلال ضرورة داخلية.

إنَّ كلمة «شوبنهور» التي يقول فيها:

- «بلا شكٍّ، يستطيع الإنسان أن يقوم بما يريد القيام به، ولكنَّه لا يستطيع أن يريد ما يريد» رافقتني في شبابي وظلَّت معي في الأحداث والتجارب طيلة حياتي، وكانت هذه الكلمة المأثورة بالنسبة لي عزاء، وينبوعاً لا ينضب للاحتمال والصبر!

وعيٌ هذه الفكرة يخفِّف بطريقة جيدة الشعور بالمسؤولية بالقهر، ويتيح لنا التعامل بطريقة سهلة مع أنفسنا ومع الآخرين، إذ أنَّنا محكومون بمفهوم للحياة يترك لنا مجالاً للفكاهة أيضاً.

كيف أرى العالم

كم هي غريبة حالتنا، وحالة أمثالنا الموتى!

إنَّ وجود كلٍّ واحد منَّا على هـذه الأرض لـيس أكثـر مـن زيـارة قصيرة، إنَّه يجهل لماذا، ولكنَّه يشعر كثيراً من المـرَّات بهـذا الـشعور دون أن يفكِّر، نحن نعرف وجهة نظره في الحياة اليومية، نحن هنا من أجل الآخرين، وقبل كلِّ شيء من أجل أولئك الذين تمثِّل ابتـساماتهم وراحتهم الشرط الكامل لسعادتنا، وسعادة هؤلاء الـذين لا نعـرفهم، والمصير الذين تربطنا بهم روابط اللُّطف والمحبَّة.

انظروا بِمَ أفكِّر كلّ يوم

تتعلَّق حياتي الخاصَّة والعامَّة بعمل معاصريّ، وعمل أسلافي، وعليّ أن أقدِّم لهم نفس الحصَّة التي تلقَّيتها، وأتلقاها أيضاً. أحتاج أن أعيش حياة بسيطة، ولطالما أدركت بصعوبة بالغة أنّني أطلب من عمل شركائي أكثر ممَّا هو ضروري، لديَّ شعور أنَّ الفرق بين الطبقات ليس مبرَّراً البتَّة، وهو في نهاية الأمر قائم على العنف، ومع هذا أعتقد أنَّ حياة متواضعة كافية بشكل لائق لكلّ منَّا، للجسم والروح معاً.

الانشغال الدائم بمعنى وغاية وجودنا الخاصّ، ووجود الكائنات الأخرى بدا لي دائماً، من وجهة نظر موضوعية خالية من كلّ معنى، ورغم هذا أرى من جهة أخرى أنَّ لكلّ إنسان مُثُله التي تقوده في العمل والأحكام.

بهذا المعنى لم تكن الحياة السليمة والسعادة تبدوان لي كغاية مطلقة، حتَّى أنَّني أسمِّي هذه القاعدة الأخلاقية [مثال الخنازير]!

إنَّ المُثُل التي أضاءت لي الطريق، والتي طالما منحتني الشجاعة اليقظة هي مُثُل الخير والجمال والحقيقة!

دون الشعور بالانسجام مع أولئك الذين يشاركونني قناعاتي، ودون متابعة الهدف الذي لا يمكن إمساكه أبدياً، في مجالات الفنّ والبحث العلميّ، ستبدو الحياة بالنسبة لي فارغة تماماً.

بدت لي الغايات العادية التي يهدف لها الجهد الإنسانيُّ، وامتلاك الأشياء، والنجاحات الخارجية، والرفاهية، منذ سنوات شبابي الأولى أشياء محتقرة لا قيمة لها.

في مواجهة قناعتي وفهمي الجادّ للعدالة والواجب الاجتماعيِّ شعرت دائماً بعدم الحاجة للقرب من الآخرين والتجمُّعات البشرية، أنا حصان حقيقي يريد أن ينسحب وحيداً..

لم أشعر مطلقاً بانتماء عاطفي إلى دولة، أو أرض، أو حلقة للأصدقاء، ولا حتَّى للعائلة الأكثر قرباً، بل العكس، لطالما شعرت اتِّجاه هذه العلاقات بشعور لا يكلُّ بأنَّني رجل غريب بحاجة إلى الوحدة، وهذا الشعور ظلَّ يزداد شيئاً فشيئاً مع السنوات التوالي!

لدينا شعور قوي، ولكنَّه دون ندم، بتحديد علاقاتنا مع «القريب»، بلا شكّ أنَّ رجلاً كهذا يفقد الكثير من مزاياه البريئة، وخلوِّ باله، ولكنَّه يحتفظ بالمقابل باستقلالية واسعة لأفكاره وعاداته وأحكامه مع بني جنسه، إنَّه لا يبحث عن توازنه الخاصِّ على قاعدة غير ثابتة.

- اختياري السياسي هو الديمقراطية!

كلُّ واحد منَّا يجب أن يحظى بالاحترام، ولا أحد يجب أن يُقَدَّس في ذاته، إنَّها لمهزلة حقيقية للقدر أن أرى معاصريَّ يبجِّلونني، ويضفون عليَّ صفات التمجيد والإعجاب، دون أن يكون لي يد بهذه المهزلة، أو أن أكون قد استحققت هذا فعلاً، ربما يعود السبب إلى رغبة الكثيرين التي لا تقاوم بفهم بعضٍ الأفكار التي طرحتها بفضل قواي المتواضعة، عبر كفاح بلا توقُّف.

أعرف جيداً أنَّه من أجل إقامة منظمة ما، لا بدَّ من وجود واحد بعينه، يخطِّط، ويأخذ على عاتقه المسؤولية كاملة، ولكن لا يجب أن يكون المحكومون هؤلاء تحت الضغط والإكراه، عليهم أن يختاروا بأنفسهم الرئيس، إنَّني واثق أنَّ نظاماً أوتوقراطياً للقهر والتعسف نهايته الانحلال والتلاشي في وقت قصير:

في الواقع، يجذب التسلط دائماً البشر ذوي الأخلاق المنحطَّة، وأنا واثق أيضاً أنَّ «مستبدي العبقرية» هم ورثة اللئام، لهذا السبب كنت دائماً العدوَّ اللَّدود للأنظمة السياسية المماثلة لنظامي «روسيا» و«إيطاليا».

سبب انعدام الثقة الذي يحيط «بأوربا» اليوم بشكلها الديمقراطيٍّ يستند إلى الفكرة الرئيسية لهذا النظام السياسيٍّ، ولكن على عيب في الاستقرار على مستوى قيادة الدولة، أو إلى الصفات العامة لشكل الانتخاب، أعتقد أنَّ «الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية» وجدت من وجهة النظر هذه، الطريق السليمة، فلديهم رئيس مسؤول منتخب لفترة من الوقت طويلة بما فيه الكفاية، وهو يتمتَّع بصلاحيات كافية لكي يتحمَّل بشكل فعَّال المسؤولية الملقاة على عاتقه.

في المقابل، في نظامنا الحكوميٍّ، أقدِّر تماماً الاهتمام والعناية الشاملة من أجل الفرد في حالة المرض والحاجة، بالنسبة لي، ليست الدولة هي الجزء الثمين في عجلة البشرية، بل الإنسان كمخلوقٍ حساس، وهو الشخصية التي تصنع ما هو نبيل وسامي، بينما تظل الجماهير غبية التفكير، محدودة العواطف.

هذا الموضوع يقودني إلى الحديث حول المخلوقات الأكثر بشاعة، ألا وهي الجماهير المسالمة للنظام العسكريٍّ الذي أكرهه.

أحتقر بأعماقي ذاك الذي يستطيع أن يمشي بكلّ لـذّة وسـرور في صف عسكري، وخلفه الموسيقى:

أعتقد أنَّه حظي عن طريق الخطأ بعقل بـشري، إنَّ صـورة رخـوة للنخاع الشوكيّ تكفيه! علينا العمل بالسرعة الممكنة لإزالة هـذا العـار الذي يلطخ اسم الحضارة باسم البطولـة حـسب الطلـب، والتعـدّي، والعقلية القومية الغاضبة!

كم أكره كلّ هذه المظاهر، وكم أحتقر الحرب التي تبدو في غاية البـشاعة، أفـضّل أن أُقَطَّـع إلى قطـع علـى أن أشـارك بهـذا الحـدث البائس، وعلى الرغم من كلّ شيء لا أزال أرى الخير في البشرية الـتي أؤمن أنّ هذا «المحصول» كان سيتلاشى منذ وقت طويـل لـو لم يكـن حسّ الشعب السليم قد تعرَّض للتشوّه والإفـساد بـشكل منـهجي مـن خلال المدرسة والصحافة وأخصائي العالم السياسي ورجال الأعمال.

أجمل ما يمكن أن نشعر به هو الجانب الغامض من الحيـاة، إنَّـه الشعور العميق الفاني في مهد الفن والعلوم الحقيقيـة. إن مـن لم يعـد يستطيع أن يشعر بالتساؤل أو بالدهشة حولهما هو رجل ميـت تقريبـاً، وعيناه أطفأتا!

إن الشعور بالغموض، المشوب بالخوف والتوجس، هو ما جـاء بالديانة، فمعرفة أنَّه هناك بعض الأشياء العصيَّة على فهمنـا، ومعرفـة الظواهر، الإدراك الأكثر عمقاً، والجمال الأشد إبهاراً الذي لا يمكـن أن ندركه عن طريق الوعي إلا في شكله الأكثر بدائية، هـذه المعرفـة، وهذا الشعور هو ما يشكّل الحقيقـيّ: بهـذا المعـنى أجـدني في عـداد الرجال الأشد إيماناً بالدين، إنَّني لا أستطيع أن أتـوهم «إلهـاً» يجـزي ويعاقب مخلوقاته، وأن يمارس خاصَّة إرادته بالطريقـة الـتي نمارسـها على بعضنا.

لا أريـد، ولا أسـتطيع أيـضاً أن أتـصورني إنـساناً ينتظـر موتـه الجـسديَّ: كـم مـن الأرواح الـضعيفة، بـسبب الخـوف أو الأنانيـة السخيفة تتغذّى بمثل هذه الأفكار، يكفـيني أن أشـعر بغمـوض أبديـة الحياة، وأن أعي، وأحسَّ بالبنـاء الرائـع لكـلٍّ مـا هـو موجـود، وأن أكافح بكلٍّ طاقة وحيوية من أجل الحصول على حصَّة ما، مهما كانت صغيرة من هذا الوعيٍ الذي يبدو ماثلاً في الطبيعة.

حول حريّة التعليم

حالة «كيمبل»:

كثيرة هي الخُطَب والكلمات حول التعليم، ولكنَّ الأساتذة الحكماء، ذوو الأخلاق النبيلة قليلون جداًّ.

صالات المؤتمرات واسعة، ومتعدِّدة، ولكنَّ الشبيبة المتعطشة حقّاً للحقيقة والعدالة أكثر ندرة وقلَّة.

إنَّ الطبيعة سخيَّة بإفراط بعطائها للمنتوجات العادية، ولكنَّها بخيلة مقترة في النتاج ذي الرهافة والذوق. نحن جميعاً نعرف هذا: لِمَ إذاً التشكِّي؟ ألم يكن الأمر كذلك من قبل، وسيظلُّ هكذا دوماً؟

بلا شكَّ هو كذلك، وما علينا سوى أن نأخذ ما تعطينا إيَّاه الطبيعة كما هو!

ولكنَّ هناك عقول أخرى في العصور، طريقة في رؤية خاصَّة للأجيال تنتقل من إنسان لآخر، وتعطي للمجتمع بصمة تطبعها، كلُّ واحد عليه أن يقوم بدوره الصغير في العمل من أجل تغيير عقلية العصر.

اليوم، الجهد نحو التقدُّم الاجتماعيّ، والتسامح، وحريَّة الفكر، نحو الوحدة السياسية الأكبر لدينا، هي ما تسمَّى «أوروبا» التي ما زالت موجودة أيضاً.

ولكنَّ الشباب الأكاديميُّون لم يعودوا هم الذين يدعمون مُثُل الشعب، ولا الجسم التعليميُّ كذلك يقوم بهذا الدور، من ينظر بدقَّة إلى زمننا دون عاطفة، سيفهم وضعنا هذا.

لقد اجتمعنا اليوم لكي نفكِّر في أنفسنا، فالهدف المباشر لهذا الاجتماع هو «حالة كيمبل» التي أمامنا، إنَّه رجل تسلَّح بروح العدالة، وكتب في موضوع جريمة سياسية لم يكفر عنه بعد، كتب بإخلاص وشجاعة كبيرة، وموضوعية ومثالية.

لقد قدَّم من خلال كتبه خدمة جلَّى للمجتمع، وهو اليوم يتعرَّض لهجوم من قِبَل هيئة الطلبة، وبعض من مدرسي جامعته الذين يريدون طرده.

على العاطفة السياسية ألاَّ تذهب أبعد من ذلك، فأنا واثق أنَّ أيَّ إنسانٍ يقرأ كتب «م. كيمبل» بحريَّة فكرية تامَّة سوف يشعر بنفس الأحاسيس التي لديَّ، إنَّنا نحتاج إلى مثل هؤلاء الرجال إذا ما أردنا الوصول إلى مجتمع سياسي صحي.

ليحكم كلٌّ منَّا حسب فكره الشخصيِّ، وذلك بالاعتماد على قراءته الخاصَّة، لا على ما يقوله الآخرون، إن نَحن تصرَّفنا بهذا الشكل، ستحصل «حالة كيمبل» هذه مع بداية انتصار صغير على نتائج جيدة.

الخير والشر:

صحيح، من حيث المبدأ، أن نشعر بعاطفة جيَّاشة إزاء أولئك الذين ساهموا كثيراً بإضفاء صفة النبل على البشر، والوجود الإنساني، ولكن لو تساءلنا أيضاً عن نوعية هؤلاء الرجال، فإنَّنا قد نصطدم بمشاكل كبرى!

بالنسبة للزعماء السياسيين، وحتَّى رجال الدين الكبار نجد أنَّه من الصعوبة بمكان معرفة ما إذا كانوا قد فعلوا الخير أكثر من الشرّ. وبالتالي، فأنا أعتقد أنَّ أفضل خدمة نقدِّمها للبشر هي إشغالهم بأشياء سامية نبيلة، وبهذا سيكونون بشكل غير مباشر سامين، ونبلاء كذلك.

هذا ما يطبق بالدرجة الأولى على أساتذة الفنّ، وبعدهم يأتي دور العلماء أيضاً.

صحيح تماماً أنَّه ليست نتائج أبحاثهم ما تضفي عليهم صفة النبل، أو تغنيهم أخلاقياً، ولكنها جهودهم من أجل الفهم، والعمل الفكريّ المنتج ذهنياً، من تقوم بهذا الدور، بهذا ليس من العدالة أن نحكم على «التلمود» حسب نتائجه الفكرية.

إنَّ القيمة الحقيقية للإنسان، تتحدَّد في أيّ مقياس، وأيّ معنى يمكن له أن يحرِّر نفسه من [الأنا].

المجموعة الاجتماعية والشخصية:

إذا ما تفكَّرنا بوجودنا وأفعالنا، سنلاحظ سريعاً أنَّ جميع أفعالنا ورغباتنا مرتبطة بوجود الآخرين.

سنلاحظ أنّنا حسب طبيعتنا نشبه الحيوانات التي تعيش ضمن مجموعات.

نحن نأكل الغذاء الذي صنعه بشر آخرون، ونلبس ألبسة صنعها آخرون أيضاً، إنّنا نسكن في منازل شيَّدها لنا بشر مثلنا، آخرون أيضاً.. ثم إنَّ أغلب ما نعرفه، ونؤمن به جاءنا عن طريق الآخرين عبر لغة صاغها لنا آخرون...

مَلَكَة التفكير لدينا لغوياً ضعيفة، تشبه إلى حد ما لغة الحيوانات المتطوِّرة، بطريقة علينا أن نعترف فيها أنَّ ما نملكه في الدرجة الأولى قبل الحيوانات يعود الفضل فيه إلى الطريقة التي عشناها في جماعات بشرية. إذا ما تُرِكَ الإنسان وحيداً منذ ولادته سيظلُّ حبيس أفكاره وعواطفه، إنَّ الإنسان البدائيَّ شبيه بالحيوانات في المقياس الذي يصعب علينا أن نتمثَّله!

إن الفرد كما هو عليه، أو ما يمثِّله، ليس مخلوقاً فردياً تماماً كما يبدو، بل هو عضو في جماعة إنسانية كبيرة تقود وجوده الماديَّ والأخلاقيَّ منذ الولادة حتَّى الموت.

تتعلَّق قيمة الإنسان بالنسبة لمجتمعه، وقبل كلِّ شيء بقياس عواطفه وأفكاره وأفعاله وتطابقها مع تطوُّر وجود البشر الآخرين.

لقد تعوَّدنا دائماً وصف الإنسان بالخير أو الشرِّ حسب موقعه من وجهة النظر هذه، منذ الوهلة الأولى تحدِّد قيمة الإنسان الاجتماعية وحدها حكمنا عليه.

مع هذا، يظلُّ مفهوم كهذا غير صائب، إذ نعترف بسهولة أنَّ جميع الممتلكات الماديَّة والفكريَّة والأخلاقيَّة التي نتلقَّاها من المجتمع خلال أجيال لا تحصى هي ابتكارات فردية محضة!

هو فرد بعينه من استخدم النار لأول مرَّة، وهو فرد بعينه كذلك من زرع الأرض بالنباتات، وهو نفسه الفرد الذي صنع الآلة البخارية.

إنَّه الفرد «وحيداً» الذي يستطيع التفكير، ومن ثمَّ خلق قيم جديدة للمجتمع، وإيجاد قوانين أخلاقيَّة جديدة تساهم في تطوُّر البشرية نحو الأفضل.

دون وجود شخصيات خلاَّقة، مفكَّرة، تحكم بتجرُّد، لا نستطيع تصوُّراً واضحاً لتطوُّر المجتمع بالمعنى التقدميٍّ، لا لتطوُّر الشخصية الفردية، دون الجسم الذي يغذيها من المجتمع.

إذن فالمجتمع السليم مرتبط أيضاً باستقلالية الأفراد في صلاتهم الاجتماعية الخاصَّة. لقد قلنا بحق إنَّ الحضارة اليونانية ـ الرومانية ـ الأمريكية، وخاصَّة ازدهار الثقافة في عصر النهضة الإيطالية الذي حلَّ محلَّ الركود في العصور الوسطى في أوربا، تستند خاصَّة على تحرر، واعتزال الفرد النسبيٍّ.

لنتأمل الآن عصرنا:

ـ ما هي حالة المجتمع؟ وما هي حالة الفرد؟.

قياساً للأزمنة القديمة، هناك كثافة سكانية في البلاد المتحضِّرة، فسكان أوربا يتجاوز الثلاثة أضعاف سكانها منذ مائة عام من الآن، ولكنَّ عدد أمزجة القادة قد نقص نسبياً، إذ أنَّه ليس هناك سوى عدد ضئيل من الرجال عرفوا من قِبَل الجماهير كشخصيات هامة من خلال مَلَكاتهم الخلاَّقة.

إن التنظيم، بمعنى ما، حلَّ محلَّ خصائص الزعيم، خاصَّة في مجال التقنية، وفي درجة أقلّ في المجال العلمي.

ضمور «الفردانية» بدا واضحاً بطريقة محسوسة، خاصَّة في المجال الفنيّ، لقد انحطَّ فنُّ الرسم والموسيقى بشكل واضح، ولم يعد له ذاك الصدى لدى الشعب.

وفي السياسة لم يعد النقصان في الزعامة فحسب، بل الاستقلالية الفكرية، والشعور بالحقّ عواطف انخفضت بشكل عميق في الطبقة البرجوازية.

التنظيم الديمقراطيّ والبرلمانيّ الذي يرتكز على هذه الاستقلالية تزعزعت قوائمه في كثير من البلدان، وولدت أنظمة ديكتاتورية، تحمَّلتها المجتمعات لأنَّ الشعور بالكرامة والحقّ عند الفرد لم يعد حيَّاً بما فيه الكفاية.

إنَّ جرائد بلد ما تستطيع خلال أسبوعين أن تقود الجموع الغفيرة، القليلة الإدراك والرأي السديد، إلى حالة متفاقمة من التحريض، حيث يستعدُّ الرجال لارتداء اللِّباس العسكريّ من أجل أن

يَقتُلوا، أو يُقتَلوا، وذلك كي يتمكَّن أصحاب المآرب من تحقيق غاياتهم الدنيئة.

إنَّ الخدمة العسكرية الإجبارية تبدو لي الظاهرة المرضية الأكثر عاراً، وخلوّاً من الشرف الشخصيّ الذي تعاني منه بشريتنا الحضارية اليوم!

لو ربطنا ما يحدث بوضعنا لما احتجنا إلى نذير ينبؤنا بالسقوط القادم لحضارتنا، لا أعتمد في هذا على أعداد المتشائمين، بل أعتقد العكس تماماً على الرغم من كلِّ شيء، فأنا أؤمن.. بمستقبل أفضل، وسأشرح بسرعة هذا الإيمان الراسخ!

باعتقادي أنَّ هذا الانحطاط للوضع الراهن ناتج عن واقع أن التطوُّر الاقتصاديَّ والتقنيَّ أضرم نار الصراع من أجل الوجود، حيث عانى التطوُّر الحرُّ للأفراد من إصابة وضرر بالغين.

ولكنَّ تقدُّم التكنولوجيا يتطلَّب من الفرد لكي يلبي حاجات المجموع عملاً متناقصاً. إنَّ التقسيم الموجَّه للعمل سيكون شيئاً فشيئاً ضرورة ملزمة، وهذا التقسيم سيقود إلى الأمان الماديِّ للأفراد عامَّة.

بيد أنَّ هذا الأمان المادي المرافق للرفاهية والقوَّة في خدمة الفرد يمكن أن يكون في صالح تطوُّر شخصيته، بهذه الطريقة يستطيع المجتمع مجدَّداً إصلاح نفسه، ونحن نريد ههنا أن نأمل من مؤرخي المستقبل أن يعرضوا الظواهر الاجتماعية المرضية لزمننا كأمراض طفولية لبشرية ذات قوى طموحة، مدفوعة بخطى سريعة جدّاً نحو تقدُّم الحضارة.

كلمة على ضريح «هـ.آ.لورنتز»:

ها أنذا قرب ضريح الرجل الأكبر والأنبل من جميع معاصرينا، إنَّه ممثّل علماء البلاد الناطقة باللُّغة الألمانية، وخاصَّة «أكاديمية العلوم في بروسيا»، ولكن قبل كلٍّ شيء كتلميذ شغوف.

إنَّ عقله المنير أضاء الطريق التي قادت إلى نظرية «ماكسويل» في خلق الفيزياء المعاصرة، والتي زوَّدها بالأدوات والمناهج الهامَّة.

لقد نظَّم حياته، حتَّى في أدقّ التفاصيل كعمل فني ثمين.

طيبته وعظمة روحه لا تعرفان العجز والكلل، وشعوره العميق بالعدالة المقرون بنظرة ثاقبة، ومتفحِّصة للبشر والأشياء جعل منه زعيماً أينما حلَّ، وحيثما مارس نشاطه.

الجميع يتبعه بكلِّ سرور، ذلك لأنَّهم يشعرون بأنَّه لا يريد أن يسودهم، بل أن يخدمهم.

عمله، ومثاله، سيستمران بإنارة الأجيال القادمة، وسيساهمان في خلاصها!

نشاط «هـ آ. لورنتز» في خدمة التعاون العالمي:

مع المبالغة والغلوّ في عمل البحوث العلمية التي جاء بها القرن التاسع عشر، بدا واضحاً ندرة الرجال من الدرجة العلمية الأولى الذين يجدون القدرة على خدمة المجتمع في مجال التنظيم والسياسة العالمية.

من أجل هذا، نحن بحاجة ليس إلى قوَّة العمل والذكاء وتأثير الخبرة من خلال الأعمال فحسب، ولكنَّنا بحاجة إلى صفة أصبحت نادرة جداً في زمننا، ألا وهي الإخلاص والتفاني من أجل غايات مشتركة لدى الجميع، واستقلالية في الفكر إزاء الأحكام الوطنية المُسْبَقة.

لم أعرف رجلاً جمع في شخصه كلَّ هذه الصفات بطريقة مثالية كما فعل «هـ. آ. لورنتز».

ولكن ها هو الجانب الرائع لنشاط هذه الشخصية: إنَّ الشخصيات المستقلَّة، والتي تتشبَّث بفردانيتها كما هو الحال لدى العلماء لا تنحني طوعاً أمام إرادة خارجية عنها، ولا تتصرَّف إلاَّ بما يملي عليها عواطفها النابعة من القلب بالذات.

عندما تسلَّم «لورنتز» منصبه كرئيس أحاط نفسه بطيبة قلب بجو دافئ من التعاون، مع جميع الخلافات في وجهات النظر، وطرق التفكير لزملائه في العمل.

إن سرَّ هذا النجاح لا يكمن في القدرة على الفهم السريع للبشر، والأشياء، والسهولة في طريقة إلقاء الكلمات فحسب، ولكن لشعورنا بأنَّ «لورنتز» يضع نفسه كاملاً في خدمة الأشياء، ويستغرق كلياً في العمل الذي يقوم به:

ـ لا يلقي السلاح من كان عنيداً... ومثابراً!

قبل الحرب، كان نشاط «لورنتز» في خدمة العلاقات الدولية ينحصر في رئاسة مؤتمرات الفيزياء، وهنا علينا أن نذكر مؤتمرات «سولفاي» التي انعقد اثنان منها في «بروكسل» عام [1909] و[1912]، بعدها اندلعت الحرب الأوربية: كانت الضربة الأشدُّ وحشية التي يمكن تصوُّرها بالنسبة لجميع الذين يحملون في قلوبهم همَّ تقدُّم العلاقات الإنسانية عامة.

كان «لورنتز» قد وضع نفسه في خدمة المصالحة العالمية خلال الحرب وبعدها، وكانت جهوده تنصبُّ خاصَّة على ترميم التعاون المثمر والقائم على الصداقة بين العلماء والمجمَّعات العلمية. من لم يشارك بهذا المشروع لا يمكن له أن يفهم الصعوبات، فالحقد المتراكم خلال الحرب ما زال مؤثِّراً أيضاً، وهناك الكثير من البشر الذين عانوا الحرب ما زالوا في نفس المواقف التي ترفض المصالحة، تلك المواقف نفسها التي انساقوا وراءها تحت تأثير الظروف، إنَّ جهود «لورنتز» تشبه حالة طبيب عليه معالجة مريض معاند، يرفض أخذ الدواء الذي حُضِّر له بعناية من أجل شفائه!

بيد أنَّ عزيمة «لورنتز» لم تثبط أبداً، وذلك لإدراكه أنَّ هذه هي الطريق المثلى في الحياة، وسرعان ما بدأ يشارك بعد الحرب في إدارة «مجالس البحوث» التي أقامها علماء من الدول المنتصرة في الحرب، مع استبعاد العلماء والجمعيات العلمية في دول القوى المركزية.

عبر هذا المنهج الذي قرَّبه من هذه الجمعيات تابع تأثيره على المؤسَّسة العلمية بطريقة أصبحت فيها بعد توسُّعها، تنظيماً عالمياً بشكل ملحوظ.

بعد الجهود المتوالية، نجح مع العقول ذات الإرادة الطيبة بإلغاء التشريع الصادر عن المجلس باستبعاد أولئك الذين لم تثبت عليهم جريمة ما.

مع هذا ومع استمرار الهدف، أي إعادة بناء التعاون الطبيعيّ والمثمر لم تبلغ الجمعيات العلمية بعد غايتها المنشودة، ذلك لأنّ علماء بلدان «القوى المركزية» ما زالوا غاضبين من استبعادهم وطردهم عبر عشر سنين تقريباً، وأغلب المنظمات العلمية العالمية اعتادت على عدم وجودهم، مع هذا، فإنّنا نأمل بقوّة، وذلك بفضل الجهود التي يبذلها «الورنتز» بكثير من الذوق ورهافة الحسّ، أن يذوب الصقيع المتراكم على هذه العلاقة.

لقد استخدم «الورنتز» نشاطه في خدمة غايات فكرية عالمية بطريقة أخرى أيضاً:

فقد قبل انتخابه في «الجنة التعاون الفكريّ العالميّ لمجتمعات البلدان» منذ خمس سنوات تقريباً، والتي شيّدها آنذاك «برغسون» منذ سنة، و«الورنتز» يترأس هذه اللّجنة وذلك بالمعونة الفعّالة «المعهد باريس» الذي يعمل تحت إدارته، والذي عليه القيام بمهمة الوساطة في مجال العمل الفكريّ والفنيّ لمختلف الأوساط المتحضرة، هنا أيضاً، سيقود تأثيره المتسامح البسيط إلى الطريق القويم، فهو يطبّق بجلد ومثابرة دون كلام القول المأثور:

ـ «لا للسيطرة، بل للخدمة»!

ـ هلاّ ساهم مِثَالُه بسيادة روح كهذه!!

حول عيد مولد «آرنولد بيرلينر» السبعين:

أريد أن أشرح هنا لصديقي «بيرلينر» ولقرّاء هذه المجلة لِمَ أقدّره وأعمَاله إلى هذه الدرجة العالية، هكذا عليَّ أن أضعه الآن في مكانه المناسب، وإلاَّ فلن تتاح لي الفرصة مرَّة ثانية، ذلك لأنَّ ثقافتنا التي تعتمد على الموضوعية حوَّلت كلَّ ما هو شخصي إلى «محرَّم» علينا ألاَّ نقترب منه، وهذا لا يتمُّ إلاَّ بظروف استثنائية كهذه الظروف التي قصَّرت فيها أنا المتواضع الفاني بهذا الصدد.

بعد هذا الاستطراد الذي أرجو أن تعذروه، لنعد إلى المسائل الموضوعية، فقد امتدَّ مجال الوقائع العلمية بشكل كبير، وتعمَّقت المعرفة النظرية في جميع الميادين العلمية بطريقة لم نكن نتوقعها، ولكن قدرة الفهم البشرية كانت ولا تزال مرتبطة بحدود ضيقة، لذا فلا غرابة أن نجد نشاط الباحث بشكل فردي قد انحصر في قطَّاع محدود ضمن مجموعة العلوم، ولكن هناك ما هو أدهى وأمرُّ: فقد نتج عن هذا التخصُّص في هذا القطاع أو ذاك أنَّ الذكاء البسيط العامَّ لهذه المجموعة، سيتوصل شيئاً فشيئاً، إلى التربُّع على قمَّة التقدُّم العلمي!

هذه المجموعة ستخلق وضعاً شبيهاً بما نقرأه في «التوراة» حول رمزية قصة «برج بابل».

إنَّ كلَّ ما يعمل في البحث العلميِّ الجادُّ سيشعر بألم شديد إزاء هذه المحدودية اللاَّ إرادية لدائرة الوعيِّ، تضيق أكثر فأكثر، وتهدِّد بحرمان العالِم من الإمكانيات الكبرى للعمل، وتقليل شأنه، والحطّ من قيمته.

لقد عانينا جميعاً من هذا البؤس، ولا أحد يقوم بمسعى للتخفيف من هذه الحالة، فقط، «بيرلينير» من مدَّ يد العون في البلاد الناطقة باللُّغة الألمانية بطريقة مثلى.

لقد اعترف أن المجلات الشعبية الموجودة كانت في الواقع تقدِّم لجهلاء التعليم ما يخدم مصالحهم، ولقد رأى أيضاً أنَّ جهازاً موجَّهاً بشكل منهجي وبعناية فائقة هو ضرورة ملحَّة للتوجيه العلميٍّ للعلماء الذين يقومون ببحوثهم، ويضعون أنفسهم في سير تطوُّر المسائل، والمناهج والنتائج العلمية، بطريقة تمكِّنهم من تكوين حكم بأنفسهم، دون الاعتماد على أحكام الآخرين.

لقد تبع هذا الهدف عبر سنين طويلة بكثير من الفهم والإصرار قدَّم لنا، وللعلم خدمة لا يمكن أن نشعر إزاءها إلاَّ بالشكر والعرفان!

لقد وجد نفسه مضطراً لتلقي العون من العلماء الذين كانت أعمالهم قد توَّجت بالنجاح، وعرضها بصورة يفهمها الجميع دون ذوي الاختصاص.

لطالما حكى لي عن صراعه من أجل الوصول إلى هدفه، ذات مرة لخَّص لي المشاكل التي كان يواجهها بهذه المزحة:

- «من هو العالِم؟ الجواب: هو لقاء نبتة عنبرية مع خنزير بجلد شوكي»!.

لم يكن مشروع «بيرلينير» ليتمَّ لولا أنَّه كان يريد الحصول على رؤيا واضحة حول مجال البحث، وهي نفس الرغبة التي دفعته إلى تصحيح كتيب صغير في الفيزياء خلال سنين طويلة من العمل والجهد.

قال لي طالب في كلية الطبِّ منذ فترة قصيرة:

- «لا أدري كيف كنت سأرى بوضوح مبادئ الفيزياء الجديدة دون هذا الكتاب»؟!

لقد ساهم الكفاح الذي قاده «بيرلينير» بطريقة استثنائية في الوصول إلى رؤيا واضحة شمولية لكثير من العقول وتحت أشكال حيَّة في المسائل والمناهج، ونتائج العلم.

أضيف أخيراً أنَّ حياتنا العلمية لا يمكن أن تغضّ الطرف عن مجلته «العلوم الطبيعية» التي ساهمت في حلٍّ كثير من المسائل الشائكة.

ـ نعلم جميعاً الهبة التي قدَّمها لنا «آرنولد بيرلينير» والتي لا ننكر فضلها علينا.

حول موضوع الغنى

أعتقد جازماً أنَّ كلَّ ثروات العالم لا يمكن لها أن تدفع بالبشرية للأمام، حتَّى لو كانت هذه الثروات بيد رجل مخلص متفان قدر الإمكان من أجل تطوُّر هذه البشرية.

وحده مثال الرجال العظام والسليمي النية، أولئك الذين يمضون نحو المبادئ والأفعال النبيلة.

إنَّ النقود لا تقود سوى إلى الأنانية، وهي تدفع دائماً بأصحابها إلى الاستخدامات السيئة.

ـ أيمكن لنا أن نعرض صور «موسى»، و«عيسى»، أو «غاندي»، مسلحين ببورصة «كارنجي»؟!

التعليم والمعلّمون

رسالة:

آنستي العزيزة:

قرأت ما يقارب الستَّة عشرة صفحة من مخطوطك، ولقد ضحكت ممَّا قرأت.

كلٌّ ما ورد يشير إلى الحكمة، ويدعو إلى التمعُّن... ويحتوي على معنى النبل والإخلاص إلى درجة ما من وجهة النظر، ومع هذا، يظلّ هذا المخطوط.. نسائياً، أي متأثراً بالحقد والبغضاء.

لطالما عوملت هكذا من قِبَل أساتذتي الذين لم يحبوني بسبب تفكيري المستقلّ، ولطالما أغفلوني عندما كانوا بحاجة إلى معاون [على كل الأحوال، كنت كطالب مُهْمَلاً أكثر منك، وعليَّ أن أعترف بهذا]، ولكنَّني لا أجد أهميَّة لكتابة مذكراتي كطالب، ولا أرى ضرورة كذلك أن ينشرها أو يقرأها آخرون.

احتفظي بمزاجك لنفسك إذن، وحافظي على مسوَّدة هذا الكتاب لأبنائك أو بناتك كيما يلقوا فيه العزاء، ويسخروا مما سيقوله لهم أساتذتهم.

في النهاية، سوف آتي إلى «برانستون»، فقط من أجل أعمال البحث، لا كمعلم، عامَّة هناك الكثير من طرق التعليم، خاصَّة في المدارس الأمريكية، ولكن ليس هناك من تربية عقلية أكثر من أن نكون كما نحن، حتَّى لو كنَّا مفزعين!

ـ مع التحيَّة الوديَّة...

إلى تلامذة «اليابان»:

عندما أرسل لكم تحيَّتي هذه، أيُّها التلاميذ اليابانيون، فذلك لأنَّني أمتلك هذا الحقَّ خاصَّة.

أخيراً، زرت هذا البلد الجميل، «اليابان»، ورأيت مدنه، ومنازله، وجباله، وغاباته، وكذلك رأيت صغاره الذين يعيشون ويستمدُّون الحبَّ من بلدهم الأصلي.

هنا على طاولتي، يقبع دائماً كتاب مليء بالرسوم والصور الملوَّنة التي تمثِّل الصغار اليابانيين.

والآن، عندما تتلقون من البعيد تحيَّتي، سوف تعتقدون أنَّه زمننا فقط الذي جعل من رجال مختلف البلدان قادرين على الاهتمام ببعضهم بروح الصداقة، والتفاهم المتُبَادل، بينما تظلُّ الشعوب داخل أوطانها لا تعرف بعضها، بل أنَّ الخوف والكراهية هي ما تسود عواطفهم.

ليعمَّ التفاهم الأخويُّ العميق بين الشعوب، لأنَّه بهذا المعنى، أتقدَّم لكم أنا، الطراز القديم، بالتحيَّة عن بُعْد، أيُّها التلاميذ اليابانيون، على أمل أن يُشْعِرَ جيلكم الجيلَ القادمَ ذات يوم بالخجل!

أساتذة وطلاب

كلمة للأطفال:

إنَّه الفنُّ الأهمُّ للأساتذة، تحريض لذَّة الفعل الخلاَّق والمعرفة.

أيُّها الأطفال الأعزاء:

يسعدني أن أراكم هذا اليوم أمامي أيُّها الشباب الفرحين لبلد مشمس مبارك، آملاً أن تأخذوا عني ما هو آت:

- إنَّ الأشياء التي تثير الإعجاب، والتي تتعلمونها في مدارسكم هي حصيلة عمل أجيال عديدة، خلقت في بلاد الأرض الواسعة عبر عمل طويل وشاق، كلُّ هذا أصبح الآن ملك أيديكم كإرث لكم بالطريقة التي تستقبلونه بها، فلتمجِّدوا هذه الأعمال، وتطوِّروها، لأنَّكم ذات يوم سوف تورثوها بكلِّ أمانة إلى أطفالكم أيضاً، هكذا نحن الفانون، نصبح خالدين في الأشياء التي نخلقها سوية ونشارك في الأعمال التي لا تفنى.

إن فكرتم دائماً بهذا، سوف تجدون معنى ما للحياة، وللجهد، وسوف تحصلون على فكرة صحيحة حول الشعوب والأزمنة الأخرى.

الجنَّة الضائعة:

اجتمع علماء «أوربا» وفنَّانوها في القرن السابع عشر حول مثال مشترك يصلهم، وهو أنَّ تعاونهم لم يتأثر كثيراً بالأحداث السياسية العاصفة، لقد لعبت اللغة الَّلاتينية آنذاك دورها في دعم هذا التعاون.

ننظر اليوم الوضع ذاك كما ننظر إلى جنَّة ضائعة، لقد هدَّم الشعور القوميُّ وحده العقول، واللُّغة اللاَّتينية التي كانت توحِّدها يوماً ما قد ماتت، إنَّ العلماء الذين أصبحوا يمثلون التقاليد الأشدَّ قوَّة فقدوا وحدتهم التي كانوا يتمتَّعون بها.

نتفحَّص هذا الحدث المؤثِّر في أيامنا هذه، لقد أصبح رجال السياسة والأعمال وكلاء الفكر العالميِّ، إنَّهم هم الذين أنشأوا «عصبة الأمم»!.

الدين والعلم:

كلُّ ما قام به البشر أو تصوَّروه هو في خدمة تلبية الحاجات التي يشعرون بها، وفي تخفيف حدَّة آلامهم، علينا أن نضع هذا في الحسبان إذا ما أردنا فهم الحركات الفكرية وتطوُّرها، ذلك لأنَّ العواطف والطموح هي المحرِّك لجميع الجهود، والاختراعات البشرية التي تبدو ماثلة أمامنا.

ـ ما هي إذن الحاجات والعواطف التي قادت إلى فكرة الدين والعقيدة بمعناها الواسع.

إذا فكرنا بهذا السؤال، فإنَّنا سرعان ما نجد في مهد الفكر والحياة الدينية الأحاسيس الأكثر تنوُّعاً.

إنَّ الخوف الذي يعيشه الإنسان البدائيُّ هو، وقبل كلِّ شيء آخر الذي يحرِّض الأفكار الدينية وينمِّيها، كالخوف من الجوع، والحيوانات الضارية، والمرض، والموت. في هذه الحالة، تكون الأفكار في صيغتها المنطقية المترابطة في أدنى حالاتها في سلسلة الفكر، إذ تصوَّر العقل البشريُّ كائنات شبيهة بنا، تتمتَّع بالإرادة والفعل المؤثِّر على الأحداث المخيفة، لهذا فإنَّنا نتحوَّل إلى هذه المخلوقات في أذهاننا، نتقدَّم إليها بالأعمال والأضاحي، وذلك حسب العقيدة المتوارثة عبر الأجيال، كي تخفف عنا آلامنا ومخاوفنا، بهذا المعنى أسمِّي الشكل من الديانة، بديانة «الرعب»، هذه الديانة ليست مُبْتكرة، بل هي قائمة أساساً على أصول إكليروسية خاصَّة تظهر كوسيط بين هذه المخلوقات المخيفة والشعب، وتقيم على هذا سيطرتها، إنَّ الملك ورئيس الدولة الذي يستند إلى عوامل أخرى أو على طبقة مميَّزة يوحِّد في سيادته الوظائف الإكليروسية لكي يحافظ على استقرار النظام القائم، أو أنه يُوْجِد مجموعةَ مصالح بين هذا الإكليروس الذي يمسك بالسلطة والطبقة التي يستند إليها.

هناك مصدر ثان للبنية الدينية، ألا وهي العواطف الاجتماعية، أب، أم، زعيم مجموعة بشرية كبرى، هم موتى، وقد يخطؤون أيضاً في نهاية الأمر!

إنَّ التوق الشديد للحبِّ، العون والمساعدة، للقيادة هي عواطف تستدعي إيجاد فكرة الإله الاجتماعيِّ، الأخلاقي.

إنَّه الله السماويُّ الذي يحمي، ويحرِّك، ويجزي ويعاقب بنفس الوقت، هو الله الذي [حسب فكر الإنسان] يحبُّ، ويشجِّع حياة القبيلة، والبشرية والحياة نفسها، وهو العزاء في المصَاب، في الأحوال، وحافظ الأرواح.

تلك هي فكرة الله المُدْركة في صورتها الأخلاقية والاجتماعية.

نستطيع أن نلاحظ في «الكتابات المقدَّسة» للشعب اليهوديّ تطوُّر الديانة [ديانة الرعب] إلى الديانة الثانية [الديانة الأخلاقية] التي تبعتها في «العهد الجديد».

إن الديانات لدى جميع الشعوب المتحضرة، خاصَّة شعوب الشرق، هي ديانات أخلاقية بشكل أساسي، فالعبور من الديانة الأولى [ديانة الرعب] إلى الديانة الأخلاقية شكَّل تقدُّماً هاماً في حياة الشعوب.

علينا أن نحتاط من الأفكار المُسبَّقة التي تعتمد على الاعتقاد بأنَّ الديانات البدائية هي فقط ديانات الرعب، وأن ديانات الشعوب المتحضِّرة وحدها الديانات الأخلاقية! إنَّ كلَّ هذه الديانات هي خليط من الاثنين مع تفوق وسموٌّ للديانة الأخلاقية في درجة التطوُّر للحياة الاجتماعية.

هناك قاسم مشترك لهذه الأشكال من الديانات، وهو التشابه في فكرة الله: إنَّه يسمو فوق كلِّ ما هو سام.

هناك درجة ثالثة للحياة الدينية رغم ندرتها في تعبيرها الصافي، وهي ما أسميها: «الديانة الكونية»!

من الصعوبة بمكان فهم هذه الديانة لمن لا يشعر بها في أعماقه، ذلك لأنَّ صورة الله التي تشبه الإنسان لا تنطبق وهذه الديانة.

يشعر الفرد بعبث الطموح والأهداف البشرية، ولكنَّه أيضاً يحسُّ بالصفات السامية والنظام الرائع الذي يسود الطبيعة وعالم الفكر.

إنَّ وجوده الفرديَّ يجعله يحسُّ أنَّه في سجن، وأنَّه يريد الحياة كاملة، وامتلاك كل ما فيها، في وحدتها، ومعناها العميق.

منذ التطوُّرات الأولى للديانة، مثلاً في «مزامير داوود»، وكتابات بعض الأنبياء الآخرين نجد أنَّ هناك تقارباً قد حصل نحو هذه الديانة الكونية.

ولكن المبادئ الأكثر أهمية تلك التي نجدها في «البوذية»، كما ورد في كتابات «شوبِّنهور» الرائعة بهذا الصدد.

لقد لاحظ عباقرة الديانات عبر الأزمنة هذه «الديانة الكونية» التي لا تعرف عقيدة ولا إلهاً على صورة الإنسان. لذا لم توجد كنيسة واحدة تنشر المبادئ الأساسية لهذه الديانة الكونية.

حدث أن وجد بين ورثة الدين الجديد هذا عبر جميع العصور أن رأينا بعض أتباعه قد اتُّهموا بالكفر والإلحاد، وغالباً ما اعتبروا قدِّيسين أيضاً، يمكن في هذه الحالة أن نشير إلى بعض الذين مثَّلوا وجهة النظر الدينية هذه مثل [ديموقريط، فرانسوا دسيز، سبينوزا].

ـ كيف تستطيع «الديانة الكونية» هذه أن تقيم التواصل بين البشر، طالما أنَّها لا تقود إلى أيَّة فكرة أكيدة حول الله، أو حول نظرية محدَّدة؟

يبدو لي أن هذه هي الوظيفة الرئيسية للفنِّ، والعلم في إيقاظ، والحفاظ على هذا الشعور حيّاً وسط من هم مستعدون لاستقباله.

هكذا نتوصَّل إلى مفهوم للعلاقة بين العلم والدين مختلف كليَّاً عن المفهوم المتعارف عليه، إنَّنا نميل إلى اعتبارات تاريخية، والتعامل مع الدين والعلم كحالة عداء وخصام لا مناص منها، هذه الفكرة تعتمد على أسباب مفهومة جدّاً، إنَّ الإنسان المشبع بقوانين السببية التي تؤثِّر على الأحداث لا يستطيع أن يقبل أبداً فكرة كائن يتدخَّل في سير أحداث العالم، شريطة أن يأخذ فرضية السببية على محمل الجدّ.

إنَّ ديانة الرعب، وديانة الأخلاق ليس لهما مكان في تفكيره، وأنَّ إلهاً يجزي ويعاقب بالنسبة له لهو إله غريب حقّاً، ذلك لأنَّ الإنسان يتصرَّف حسب قوانين داخلية وخارجية حتمية، وعلى هذا فهو ليس مسؤولاً أمام الله، إنَّه ليس أكثر من شيء جامد غير مسؤول عن حركاته.

لطالما اتهمنا العلم بتقويض الأخلاق، إنَّنا بلا شك مخطؤون تماماً، فالسلوكية الأخلاقية للإنسان يجب أن تقوم على الرحمة والثقافة والصلات الاجتماعية دون الحاجة إلى مبادئ دينية، إنَّ الإنسان سيصبح جديراً بالشفقة إذا ما وقف أمام الخوف من العقاب، أو الأمل بالتعويض بعد الموت.

ندرك إذن لماذا حاربت الكنيسة العلم عبر العصور، وطاردت حتَّى النهاية رجالاته، من جهة أخرى، أدَّعي الآن أنَّ «الديانة الكونية» هي النابض الأكثر قوة ونبلاً للبحث العلمي.

وحده الذي يستطيع قياس الجهود، وخاصَّة التفاني العظيم في العمل، والذي بدونه لا يمكن للاكتشافات العلمية أن ترى النور، وحده يقدِّر قوَّة الشعور الذي يستطيع القيام بعمل مستقل عن كلِّ صلة بالحياة العملية المباشرة! أيُّ شعور بالغبطة العميقة للحكمة في صرح العالم، وأيَّة رغبة متأججة للفهم، لا تكوِّن سوى بعض الأشعة الخفيفة للعظمة البادية في النظام المدهش للكون الذي سيطر على «كيبلر»، و«نيوتن» كيما يستطيعوا من خلال عمل منعزل لسنوات طويلة ترتيب، وتنسيق ميكانيكيا السماء.

إنَّ من لا يعرف البحث العلميَّ سوى من خلال نتائجه العملية يتوصَّل بسهولة إلى مفهوم غير ملائم مطلقاً لحالة تفكير هؤلاء

الرجال، وهم محاطون بمعاصريهم الشكوكيين، وقد أضاؤوا الطريق إلى أولئك الذين تشبَّعوا بأفكارهم، ومن ثمَّ عمَّموها بعد مرور العصور، عبر بلاد العالم أجمع.

لا أحد سوى من كرَّس حياته إلى غايات مماثلة يستطيع أن يمثِّل بطريقة حيَّة ما حرَّك هؤلاء الرجال، وما أعطاهم القوَّة كي يظلُّوا أوفياء لغاياتهم رغم حالات الفشل التي لا تحصى.

إنَّها «الديانة الكونية» من تبذل جهدها بنفس القوَّة والشغف، فلا عجب إذن أنَّ كاتباً معاصراً قال:

ـ «في عصرنا المُكَرَّس عامَّة للمادية يظلُّ العلماء الجادُّون هم أكثر البشر ديناً»!!

ديانة البحث العلمي:

قد تجدون بصعوبة عقلاً يبحث عميقاً في العلم لا يمتلك ديانة مميَّزة خاصَّة، ولكنَّ هذه الديانة تختلف عن ديانة الإنسان البسيط الذي يرى في الله العناية به، فهو يعاقب، ويكافئ، إنَّه كائن يدخل معه، بمقياس ما، في علاقات شخصية موقَّرة بشكل كبير، تعكس شعوراً سامياً له، بنفس طبيعة العلاقات بين الأب وابنه، عكس العالِم الذي تشبَّع بشعور السببية لكلِّ ما يحدث حوله، فالمستقبل لا يتضمَّن أقلَّ تحديداً أو ضرورة من الماضي، ولا علاقة للأخلاق بما هو إلهي، إنَّ دينه يكمن في الإعجاب الوله ليناقش قوانين الطبيعة، فهو يكتشف فيها وعياً أعلى، يظلُّ أمامه المعنى البشريُّ للدين انعكاساً لا وجود له على الإطلاق، هذا الشعور هو لازمة منطقية للحياة وجهود العالِم، حيث يسمو على عبودية رغباته الأنانية.

لا شك أنَّ هذا الإحساس مماثل لما يشعر به ذوو العقول الدينية الخلاَّقة التي مرَّت عبر العصور.

تتعرَّض البلاد التي تتكلَّم اللُّغة الألمانية لخطر على الخبراء أن يلفتوا الانتباه إليه بقوَّة، إنَّ الضيق الاقتصاديَّ الناجم عن الأحداث والتقلُّبات السياسية لم تطل العالم كله بنفس الدرجة، فهو أشدُّ وطأة بالنسبة للمؤسَّسات والأفراد الذين يرتبط وجودهم الماديُّ بالدولة مباشرة، وبين هؤلاء تقع المؤسسات العلمية والعلماء الذين يعتمد عليهم ليس فقط الازدهار الاقتصادي، ولكن أيضاً الدرجة المتطوِّرة للحضارة في «ألمانيا والنمسا» معاً.

لكي نكوِّن فكرة حقيقية عن خطورة الوضع علينا أن نعيد النظر في أزمنة البؤس المنصرمة، إذ أنَّنا لا ندرك عادة سوى حاجاتنا المباشرة،

فنحن لا ندفع سوى أثمان البضائع التي تقدِّم لنا بشكل مباشر القيمة المادية، بينما العلم، وعل الرغم من العوامل التي تلعب في إضعافه، لا يجب أن يهدف على الغايات العملية، فالمعارف والمناهج التي يبتكرها لا تخدم، بالنسبة للأكثرية، سوى بشكل غير مباشر غايات هذه الطبيعة، وغالباً ما يتجه إلى خدمة الأجيال القادمة، فإذا ما تركنا العلم دون مصادر مادية، سوف نفقد فيما بعد عمّاله الفكريين الذين بفضل رؤيتهم وأحكامهم المستقلّة هم وحدهم القادرون على فتح أبواب مبتكرة في الاقتصاد، والتأقلم مع الأوضاع الجديدة.

إذا ذوى البحث العلميُّ، فسوف تتلاشى الحياة الفكرية للبلدان، ومن ثمَّ ستضمحلُّ إمكانية التقدم في المستقبل. إذن علينا أن نفتح عيوننا أمام هذا الخطر: أمام ضعف الدولة الناجم عن نتائج التطور للسياسة الخارجية، علينا اليوم، وبشكل خاص على المستوى الاقتصاديِّ التدخُّل لمدِّ يد العون لكي لا تذبل الحياة العلمية.

هناك رجال سديدو الرأي، انتبهوا بوضوح إلى هذه الظروف، واستطاعوا أن يقوِّموا المؤسَّسات التي عليها أن تدعم البحث العلميَّ في «ألمانيا والنمسا».

ساهِموا بعونكم كيما تتوَّج هذه الجهود بالنجاح الباهر، إنَّ عملي في التعليم أتاح لي الفرصة بإدراك أنَّ الاهتمامات الاقتصادية التي تطفو على سطح الحياة لم تستطع أن تخنق الإرادة الطيبة من أجل البحث العلمي. يبدو أنَّ هذه الهزَّات المضنية غذَّت حبَّ الأشياء الفكرية عند البشر، إذ نرى العمل على قدم وساق في جميع الجهات، وتحت ظروف قاسية. انتبهوا، هناك كفاية لدى الإرادة الطيبة، وموهبة الشباب اليوم لا تتبدَّد في ما نراها خسارة عظيمة للمجموع!

الفاشية والعلم:

رسالة إلى السيد الوزير «روكُّو» في «روما»

سيدي، وزميلي المبجَّل:

رجلان من أهمِّ رجال العلم الإيطاليِّ تقدَّما إليَّ في حالة اضطراب في الوعيِّ، يرجوانني أن أكتب لكم لكي نتجنَّب قدر المستطاع حالة التشدُّد التي تهدِّد العلماء الإيطاليين.

إنَّها «صيغة القسم» التي عليهم أن يقوموا بها، ويقسموا بالوفاء للنظام الفاشيِّ. نأمل أن تنصحوا السيد «موسوليني» بإبعاد هذه الإهانة عن زهرة الذكاء الإيطالي.

رغم كلِّ الخلافات التي يمكن أن تكون بيننا، أعرف أنَّه هناك نقطة أساسية تجمعنا: نحن الاثنان نرى، ونحبُّ أن نرى في ازدهار التطوُّر الفكريِّ الأوربيِّ مهاراتنا الأكثر غلاء، والتي تستند إلى حريَّة الرأي والتعليم، على المبدأ الذي يتيح للجهود المبذولة من أجل الحقيقة أن تحظى بالأولوية على كلِّ ما سواها.

على هذا الأساس وحده استطاعت حضارتنا أن ترى النور في اليونان القديمة، وأن تتوِّج ظهورها مجدَّداً في «إيطاليا» عصر النهضة. هذا الخير الأسمى كان قد دُفِعَ ثمنه من دم الشهداء، دم الرجال العظام الذين بفضلهم حازت «إيطاليا» المعاصرة التقدير والمحبَّة.

لا أنوي مناقشة التبريرات التي تفرضها ضرورات الدولة معكم، تلك التبريرات الضارَّة بالحريَّة البشرية، ولكنَّ الجهد من أجل الحقيقة

العلمية بمعزل عن المصالح العملية في كلِّ الأوقات يجب أن يكون مقدَّساً من قِبَل جميع السلطات الشعبية، وأن يميل بالنسبة للجميع للمصلحة العليا لكلِّ خدَّام الحقيقة الشرفاء بأن يترك بسلام.

هذا أيضاً ينطبق على مصلحة الدولة الإيطالية، وصورتها في العالم.

على أمل أن يجد رجائي هذا استقبالاً حسناً عندكم، أظل المُحِبُّ المخلص لكم: «أ. آ».

المواجهة:

أن نُدْعَى ـ جماهيرياً ـ للانتباه لما قلناه، سواء عن طريق المزاح أو في لحظة مكاشفة، أو فرح، أو غضب.. فهذا قد يكون مؤلماً بقدر ما هو منطقي وطبيعي إلى درجة ما.

ولكن لو اضطررنا إلى إدراك ـ جماهيرياً ـ مرة أخرى، ما قاله الآخرون حولكم، دون أن نستطيع الدفاع عنهم، سنكون إذن في وضع يستحق الرثاء! ولكن قد تتساءلون: «من هو الذي نعنيه في هذا الوضع»؟

إنَّ هذا ما يحدث لكلٍّ من حصل على شعبية كافية لاستقبال زيارات حوارية. أنت تضحك لأنَّك لا تصدِّقني!

ولكن لديَّ الكثير من التجارب حول هذه المسألة، وسأشرح لك هذا.

تصوَّر صباحاً جميلاً. يأتي إليك إنسان نمَّام، فيسألك بلطف أن تحكي له بعض الأشياء عن صديقك [ن]. للوهلة الأولى سوف تشعر بانزعاج من هذا الطلب، ولكنَّك سرعان ما تدرك أنَّه لا مجال لتحاشي مثل هذا الحوار، ذلك لأنَّه إذا رفضت إعطاءه المعلومة التي يريد، سيصرخ قائلاً:

«لقد طلبت من أحد أفضل أصدقاء [ن] أن يحدِّثني عنه فرفض. على القارئ أن يستنتج بقيَّة القصة، فلا مناص إذن من الإجابة، وإعطاء المعلومة الآتية:

ـ «إنَّ السيِّد [ن] يتمتَّع بصفة المرح والصراحة، وهو محبوب من جميع أصدقائه، إنَّه يعرف كيف يعيش أوقاته في جميع الظروف، وهو نشيط جداً، وملتزم، وقد وضع كلَّ جهده من أجل مهنته. إنه يحبُّ عائلته، ويضع تحت تصرُّف زوجته كلَّ ما يملك»...

سيصرخ حينئذ الرجال النَّمام:

ـ «إنَّ السيِّد [ن] لا يأخذ شيئاً على محمل الجدّ، وموهبته بجعل الجميع يحبونه جاءت من طريقته في الابتسام السافل الذي يقابل به الآخرين. إنَّه كعبد لمهنته، فهو لا يفكِّر أبداً بمسائل لا تتعلَّق به شخصياً، أو أن يعير اهتماماً فكرياً لا علاقة له بمهنته هذه.

هو يدلِّل زوجته دون حدود، ويرضي حاجاتها بشكل أعمى»..

ناقل أخبار، نمَّام حقيقي سوف يضيف قليلاً من البهار والفلفل على كلامه:

ـ ولكن بالنسبة لك ولصديقك [ن] هذا، يكفيني ما سمعت!

في الصباح، يقرأ [ن] السطور السابقة والتابعة لها، ومهما كان قلبه كبيراً، سوف يشعر اتجاهك بسخط لا حد له.

لقد أصابك بعمق أيضاً الهجوم الذي تلقَّاه، وذلك باستماعك إلى ما قيل حوله.

ـ إذن، ما الذي يمكن أن تفعله يا عزيزي في هذه الحالة؟

إذا ما صدفت الحلَّ، قل لي ما هو، كي أستطيع أن أنسخ منهجك بالسرعة القصوى!

تحية شكر لأمريكا:

السيِّد المحافظ، سيداتي سادتي:

إنَّ الاستقبال الاحتفاليَّ الذي تلقيَّته منكم اليوم يضعني في حالة ذهنية مشوَّشة، فهو لا يحيطني شخصياً بالتقدير والاحترام فحسب، بل يتَّجه إلى العالِم كذلك.

هذا الاستقبال يعطي إشارة بأنَّ كثيراً من الرجال لم يعودوا ينظرون إلى امتلاك القوَّة والأشياء الماديَّة كوسيلة للخير العام، إنَّه لمن دواعي السعادة أن نعلن هذا في مكان رسمي.

خلال الشهرين الرائعين اللذين قضيتهما وسطكم في هذا البلد المبارك، كان لديَّ الفرصة دائماً أن ألاحظ كم يقدِّر رجال الأعمال والحياة العملية جهود العلم: كثير منهم خصَّصوا قسماً مهمَّاً من ثرواتهم ونشاطهم في خدمة المشاريع العلمية، وساهموا بهذا بتقدُّم وتعزيز صورة بلدكم.

عليَّ بهذه المناسبة أن أشير وكلِّي امتنان أنَّ حماية العِلْم في «أمريكا» لا تتوقَّف عند حدود. في العالم المتحضِّر كلِّه تتمتَّع المؤسَّسات العلمية بالدعم الكريم للمعاهد والشخصيات الأمريكية، من هنا، أنتم سعداء وفخورون بهذا الدعم.

هذا الدليل الفكريُّ والعاطفيُّ العالميُّ يسعدنا جميعاً: في الواقع، يترتَّب اليوم أكثر من ذي قبل على الشعب والشخصيات العامَّة التي تمتلك زمام السلطة أن يكوِّنوا أفكاراً عالمية، وشعوراً كونياً إذا ما أراد العالم التقدُّم نحو مستقبل أفضل، وأكثر شرفاً وكرامة.

أستطيع أن أعبر عن أملي أنّ هذه المواقف العالمية للشعب الأمريكي الذي يتحمّل مسؤولية عظمى سوف تأخذ مداها حتى الوصول إلى المجال السياسي. في الحقيقة دون المشاركة الفعلية والحيوية للدولة الأمريكية الكبرى في تنظيم العلاقات العالمية، ستظلُ جميع الجهود المبذولة من أجل هذه الغاية الهامّة بلا نتيجة.

أشكركم بحرارة لهذا الاستقبال الاحتفاليّ، وأنا ممتن بشكل خاص لعلماء هذا البلد على استقبالهم المطبوع بالصداقة وروح الرفاقية.

سأتذكّر دائماً هذين الشهرين بكلّ سرور وعرفان.

مدرسة «دافوس» العليا:

- «أعضاء مجلس الشيوخ أناس شجعان وكرماء، ولكنَّ مجلس الشيوخ غبي جاهل»!

بهذه الصيغة كتب أستاذ «سويسري» من أصدقائي ذات يوم، بلهجة ساخرة معتادة إلى قسم جامعي كان قد أغضبه!

تعوَّدت الجمعيات في الواقع ألاّ تعطي الإحساس بالمسؤولية أهميتها، وأن تتغاضى عن تأنيب الضمير كما لدى الأفراد. كم من الآلام القاسية عانت البشرية سبَّبتها الحروب والاضطهاد بأنواعه المختلفة، والتي ملأت الأرض بالعذاب والأنين والمرارة!

ولكن مع هذا، ليس هناك سوى الجمعيات التعاونية، والتي تضمُّ كثيراً من الأفراد من تستطيع تحقيق الأشياء ذات القيمة. في المحصلة، هي الغبطة الكبرى ما يشعر بها صديق للبشرية لدى رؤية الافتتاح، وتأسيس مشروع للجمعية هدفه الوحيد هو خير الحياة والحضارة.

لقد شعرت بالشعور نفسه عندما سمعتهم يتكلَّمون عن دروس المدرسة العليا في «دافوس». إنَّه عمل يشبه عملية إنقاذ تأسَّس بكثير من الحرص والحذر والحكمة، ويقوم على الضرورة الأكثر جدِّية لا يقدِّر قيمتها سوى العارفون. أكثر من شاب جاء إلى هذا الوادي معتمداً على الجوِّ الصحيِّ للجبال المشمسة كيما يحظى جسمه بالصحَّة، ولكنَّه، وبعد قضائه وقتاً طويلاً في العمل الطبيعيِّ، هذا الدافع للإرادة، ووقوعه تحت رحمة الأفكار السوداء التي هدَّمت جسمه، أرخى بسهولة تشدُّده الأخلاقيَّ وشعوره بقيمة الصراع من أجل الحياة. أصبح يشبه بمقياس ما نبتة زجاجية حارَّة، ما أن يستردَّ عافيته حتى يعاني الكثير قبل أن يجد طريقه إلى الحياة الطبيعية.

هذا ينطبق خاصَّة على الطلاب، فالانقطاع عن التدرُّب الفكريّ في المرحلة الحاسمة من تطوُّره يترك وراءه بسهولة فراغاً من الصعب أن يسدَّه فيما بعد.

مع هذا، من المفيد جداً القيام بعمل فكري معتدل، ولو بشكل غير مباشر! بهذه الرؤيا قامت الدروس والمحاضرات الهادفة ليس فقط لإعطاء ثقافة تحضيرية أخصائية، ولكن من أجل تحفيز النشاط الذهنيّ، لكن يجب ألاَّ ننسى أيضاً أنَّ هذا المشروع قام بتوجيه هام، وهو إيجاد صلات وشعور مشترك للمجموعة الأوروبية بين البشر والبلدان المختلفة. بهذا المعنى تكون فاعلية هذا المعهد الجديد أكثر نفعاً في ظروفه التي شهدت انطلاقته للوهلة الأولى، وذلك باستبعاده كلَّ نيَّة سياسية. إنَّ العمل الجماعي الذي قاموا به من أجل الحياة قدم خدمة كبيرة للتفاهم العالمي.

ينتابني شعور بالسعادة إذ أضع بين أيديكم وجهات النظر هذه، وأرى بفضل النشاط الواعي مؤسسي هذه المدرسة العليا في «دافوس» المشروع الذي خرج من صعوبات الإنشاء.

- هل يستطيع هذا المشروع أن يقدِّم لكثيرين قيم الغذاء الداخليّ، والسماح لأكثر واحد منهم بالإفلات من فقر الوجود إلى المصح؟!

تهنئة إلى ناقد:

أليس من الرائع أن يرى بعينه، أن يحس ويحلم دون الانتباه إلى اقتراحات أهل الذوق المعاصر، أن يكون قادراً على التعبير عمًّا يرى، ويشعر في جملة مقتضبة، أو في كلمة مختارة بشكل فني؟ إذن، هل من الضروري حقاً تهنئتك أيضاً، علاوة على كلٍّ ما تقدَّم؟!

تحيَّة إلى «آ. ج. برنارد شو»:

قلَّما نحظى بأناس يمتلكون الاستقلالية كيما يدركوا ضعف ورعونة معاصريهم دون أن يتأثَّروا بها!

ولكنَّ أكثر هؤلاء الرجال المنعزلين يفتقدون الشجاعة في التصرُّف من أجل الإصلاح، حين يشعرون بتمادي البشر في سلوكهم.

قليلة هي العقول القادرة على سحر جيل كامل بالروعة والمزاج الرهيف، وأن تضع أمامه المرآة من خلال وسيلة مبهمة، ألا وهي الفن!

أحيِّي اليوم بكلٍّ معاني الترحاب الرقيقة أكبر الأساتذة في هذا الفنِّ، من سحرنا، وعلَّمنا الكثير.

كلمات حول انطباعاتي عن «أمريكا»:

عليَّ أن أفي بوعدي بالكلام قليلاً عن انطباعاتي حول هذا البلد، وهو أمر ليس سهلاً أبداً، لأنَّه من الصعب لعب دور المراقب الموضوعيٍّ عندما نحظى بتشريف مفرط كالذي حظيت به في «أمريكا»، وحول هذه النقطة بالذات أريد أن أقول بعض الكلمات.

لا أعتقد أنَّه هناك ما يبرِّر عبادة الشخص، فالطبيعة بلا شكٍّ وزَّعت عطاءاتها بطريقة مختلفة بين أطفالها، ولكن، والحمد لله، لم يزل هناك الكثير من الموهوبين الذين أعتقد جازماً أنَّهم يعيشون حياتهم براحة، دون أن يلاحظهم أحد، يبدو لي أنَّه ليس من العدل أو حتَّى من الذوق السليم أن يعامل هؤلاء بأكثر ممَّا يجب من التقدير، أو أن نضفي عليهم صفات ما فوق إنسانية على مستوى العقل والخاصِّيات الشخصية؛ وهذه بالتحديد الحالة التي تنطبق عليَّ، إذ أنَّه هناك تباين كبير بين القدرة والقوَّة التي يضفيها عليَّ الآخرون، وبين ما هو أنا عليه حقّاً!!

وعيٌ هذا الوضعٍ الغريب لا يطاق، إذا لم يحمل بين طيَّاته بعض العزاء: هذا التقدير اللاَّ محدود دليل مفرح لزمننا الذي نقيِّمه على أنَّه زمن مادِّي، وهو يصنع أبطاله من الكائنات البسيطة الموتى، والذين هدفهمٍ الوحيد يرجع حصراً إلى المجالات الفكرية والأخلاقية، إنَّ هذا يثبت أنَّ موقع العلم والعدالة، بالنسبة للكثير من البشر فوق الثروة والقوَّة.

حسب ما رأيته، هذه الطريقة المثالية في الرؤيا تبدو هي السائدة عند الجزء الأكبر في «أمريكا» التي نتَّهمها مشبعة بالروح المادية.

بعد هذا الاستطراد أصل إلى موضوعي، آملاً ألاَّ تعطوا انطباعاتي المتواضعة هذه أكثر ممَّا تستحق.

أكثر ما يدهش الزائر في هذا البلد هو تفوُّقه في مجال التقنية والتنظيم، فالأشياء المُستعملة يومياً أكثر متانة ممَّا عليه في «أوربا»، فالمنازل منظَّمة بطريقة لا مثيل لها من حيث استخداماتها العملية، حيث توفِّر الكثير من الجهد البشريّ، واليد العاملة ليست رخيصة على الإطلاق بسبب عدم الكثافة السكانية للبلد، بالقياس إلى مصادره الطبيعية، وهذا ما ساعد على تطوُّر الوسائل ومناهج العمل التقني.

لنفكر قليلاً في الصين على سبيل المقارنة أو الهند مثلاً، وهما بلدان يتمتَّعان بكثافة سكانية عالية جدّاً، ممَّا لعب دوراً في تأخُّر تطوُّر وسائل التقنية، إنَّ «أوربا» تقع بين هاتين الحالتين، فإذا ما تطوَّرت الآلة بشكل كاف يتحوَّل إلى سوق تجارية مزدهرة تحسِّن كثيراً من وضع اليد العاملة، والتي هي أيضاً في وضع حسن.

حول هذه الفكرة، على النظم الفاشية في «أوربا» أن تعير اهتمامها، لا إلى زيادات مكثفة للسكان من أجل أهداف سياسية قصيرة المدى.

بلا شكّ، هذا الانطباع يتناقض تماماً مع المحدودية الفكرية التي تشير إلى انغلاق «الولايات المتَّحدة الأمريكية» على نفسها، وعرقلة صادراتها بقوانين ضارَّة... ولكنَّنا لا نستطيع أن نوجع رأس زائر بأفكار مسبقة حول هذا الموضوع، أخيراً لا مجال دائماً لإيجاد حلول تنطبق على الواقع بشكل منطقي.

النقطة الثانية التي تدهش الزائر هي صفة الفرح والإيجابية حول الوجود، فالضحك أمام الصور يمثل رمزاً لقوى أساسية عند الأمريكيين، فالأمريكي لطيف، بشوش، واثق من قيمه، متفائل، ولا يحمل ضغينة ضدّ أحد، فالأوربيُّ يشعر بالرضى، وليس هناك من تضادّ في علاقته مع الأمريكيين.

على عكس ذلك، نجد أن الأوربيَّ ينتقد، ويفكِّر كثيراً وهو أقلُّ وديَّة وتعاوناً، إنَّه منعزل، صعب الإرضاء بتسليَّته كما في قراءاته، وهو غالباً متشائم بالقياس إلى الأمريكي.

تلعب الرفاهية وأسباب الراحة في الحياة دوراً هاماً في «أمريكا»، فهم يكرِّسون لها جلَّ اهتماماتهم، فالأمريكي يعيش أكثر «للمستقبل»، غايته المفضلة، بينما الأوربي يعيش «حاضره»، وهذه حالات تختلف أيضاً عن حالة «روسيا»، والشعوب الآسيوية.

هناك نقطة مشتركة بين الآسيويين والأمريكان، وهي ضعف «الفردانية» كصفة، لا على المستوى الاقتصاديِّ، ولكن على المستوى النفسيِّ، نسمع كلمة «نحن» أكثر من «أنا» ممَّا يعني أنَّ مفاهيم الحياة للأفراد، وكذلك حالتهم من وجهة نظر الذوق والأخلاق أكثر تشابهاً منها في «أوربا»، وأعتقد أنَّ هذا هو سبب التفوُّق الاقتصاديِّ الأمريكي. هنا يمكن ببساطة إقامة منشأة دون الكثير من التخبُّط والحيرة، يجد تقسيم العمل مكانه بسهولة أكثر من «أوربا» في الميدان الصناعيِّ، ومجال الجامعات أيضاً، والأعمال الخاصَّة الأخرى، هذا التنظيم الاجتماعيُّ يعود في قسم كبير منه إلى التقاليد الإنكليزية.

هناك شيء مختلف كليَّاً عن التأملات وانعكاساتها، وهي أنَّ مجال نفوذ الدولة في «أمريكا»، بالقياس إلى «أوربا» محدود نسبياً، فالأوربيُّ يستغرب أنَّ البرق والهاتف والخطَّ الحديديَّ والمدارس في أكثر حالاتها ملكية لشركات خاصَّة، وهذا هو الوضع الاجتماعيُّ الأهمُّ للفرد الذي يسمح بمثل هذه الحالة. وهذا أيضاً ما يبعد التقسيم

المتباعد للثروة عن المشاكل التي لا تُحتمَل، لدى الميسورين شعور بالمسؤولية الاجتماعية أكثر بكثير مما هو عليه الحال في «أوربا»، فهم يعتبرون أنّه من الطبيعيّ وضع قسم من ثرواتهم، ونشاطهم في خدمة الجماعة، هذا بالإضافة أنّ الرأي العامّ قوي جداً، قادر على أن يطالبهم بالقيام بدورهم الذي يترتّب عليهم.

ولهذا نجد أنّ الوظائف ذات الأهمية بالنسبة للحضارة من اختصاص المبادرات الخاصّة، وإنّ دور الدولة بهذا لخصوص محدود للغاية أيضاً.

إن صورة سلطة الدولة باهتة تقريباً، وذلك بسبب «قانون التحريم» الذي فرضته .

لا شيء أخطر على هيبة الدولة كالقانون الذي لا يمكن تطبيقه، هي حالة تشبه حالة ما نسميه عادة بالسرّ الشائع، حيث ازدادت نسبة الجريمة تزامناً مع صدور هذا القانون.

أعتقد أن هذا القانون ساهم بضعف الدولة من وجهة نظر أخرى، فالحانات «أمكنة تقدّم للناس فرصة تبادل أفكارهم، وآرائهم حول الأحداث العامة. إنْ غابت هذه الفرصة كما أرى من خلال ملاحظاتي لهذا البلد، سوف تكون هناك فرصة ذهبية لوسائل الأعلام التي تتحكّم بها فئة ذات مصالح خاصّة توجهها، وتؤثّر عليها بالطريقة التي تناسبها».

هناك أيضاً المبالغة والغلوّ في تقدير المال أكثر من «أوروبا»، ولكن يبدو لي أنّ هذا التقدير، وهذه المبالغة تضعف تدريجياً! في الواقع تظلّ فكرة أنّ ثروة كبيرة ليست شرطاً ضرورياً للسعادة، فكرة تتقدّم شيئاً فشيئاً.

أمَّا فيما يتعلَّق بالفنِّ، فأنا معجب بصدق بالذوق السليم الذي يظهر في الأبنية الحديثة، والأشياء المستخدمة يومياً. أرى أنَّ فنَّ الرسم والموسيقى ليس مؤثِّراً بما فيه الكفاية في أذهان الشعب بالمقارنة مع البلاد الأوروبية.

أقدِّر عالياً إنشاء مؤسَّسات البحث العلميِّ، وهنا أضيف أنَّنا كثيراً ما نخطئ حين نعزو التفوُّق المتصاعد لأعمال البحث العلميِّ الأمريكيِّ إلى الغنى الكبير: علينا ألاَّ ننسى أن التفاني والصبر، وروح الصداقة والتعاون هي التي تلعب الدور الهامَّ في النهاية.

لكي أختتم كلمتي هذه، هناك ملاحظة أيضاً.

إنَّ «الولايات المتحدة» اليوم هي القوَّة الأكبر في العالم من حيث التقدُّم التقنيِّ، وتأثيرها على تنظيم العلاقات العالمية هو تأثير لا مجال لتحديده بكلِّ بساطة، ولكنَّ «أمريكا» كبيرة جدَّاً، وسكانها حتَّى الآن لم يهتموا كثيراً بالمشاكل العالمية، وعلى رأسها مشكلة نزع السلاح، على أمريكا أن تتصرَّف بشكل آخر، حتَّى لو كان هذا التصرُّف لا يخدم مصالحها!

لقد بيَّنت الحرب الأخيرة أنَّه لم يعد هناك حواجز بين القارات، ولكنَّ مصير البلاد كلِّها مرتبط ومتشابك جدَّاً، على هذا البلد أن يتوصَّل إلى القناعة بأنَّ شعبه يتحمَّل مسؤولية كبيرة في ميدان السياسة العالمية.

إنَّ دور المراقب السلبيِّ ليس جديراً بهذا البلد، وإذا ما استمر على هذا المنوال ستكون نتائجه مشؤومة، وضارَّة للجميع.

جواب للنساء الأمريكيات:

هناك رابطة نسائية أمريكية رأت من واجبها الاعتراض على زيـارة «أينشتاين» لبلادها، هذا هو الجواب:

لم أصدف في حياتي من قِبَل الجنس اللَّطيف رفـضاً قاطعـاً ضـدَّ أحد المقربينِ: أو على الأقل إذا كان هذا الوضع قد تمَّ فهو أكيداً لـيس من جانب كلٍ هذه المجموعة التي تمثِّل هذا الجنس بنفس الوقت.

ولكن أليس لدى هؤلاء المواطنات الحذرات الحقُّ بهذا الرفض؟

ـ هل يجب أن نترك رجلاً يـدخل بلـدهنَّ، وقـد التـهم الرأسماليـة الثرية، بنفس الشهية واللَّذة التي كان يلتهم فيها «المينيتور» ذات يومٍ أجساد العذارى اليونانيات الطرية ، رجلاً يشكو من قلَّة الذوق برفضه لكلٍ شـكل من أشكال الحروب [ما عدا حربه التي لا بدَّ منها مع زوجته بالذات]؟

استمعوا إذن إلى نسائكم الطيِّبات الحذرات، والوطنيات أيـضاً، وتذكَّروا أنَّ «الكابيتول» عاصـمة الـسيطرة الرومانيـة كـان قـد أنقـذتها قوقأة أوزَّاتها الوفية ذات يوم!

الفصل الثاني

السياسة والسلم

لقد عرف رجال الأجيال السابقة، والذين هم أفضل منّا بحقّ أهمية الغاية التي تركّز على ضمان السلام العالمي، ولكن في زمننا جعل التطوّر التقنيّ من هذه المقولة الأخلاقية مسألة وجود بالنسبة للبشرية المتحضّرة اليوم، ومن المشاركة الحيوية لجعل مسألة السلام مسألة ضمير لا يمكن للإنسان الواعي أن يتجنبها.

علينا الانتباه جيداً إلى أنّ المجموعات الصناعية الضخمة التي تشارك في صناعة السلاح تقف في جميع البلدان ضدّ التسوية السلمية لمختلف المسائل العالمية، وأنّ الحكومات لا تستطيع أن تحقق هذه الغاية الضرورية إلاّ بالمساندة الفعالة من غالبية الشعب، في عصرنا الديمقراطيّ هذا، يتوقّف مصير الشعب عليهم بالذات، هذا ما يجب أن يكون ماثلاً في أذهان الجميع في كلّ لحظة.

مشكلة العلم:

سيِّداتي، سادتي:

سعيد أنا لإعطائي الفرصة للكلام معكم حول مشكلة السلم. إنَّ تطوُّر السنوات الأخيرة أظهر مجدَّداً كم كنَّا مخطئين بترك الحكومات تقود الصراع ضدَّ التسلُّح، وعقلية الحرب منفردة.

إنَّ إنشاء منظمات كبرى، مؤلفة من مجموعة هائلة من العناصر لا يساعد سوى قليلاً في الوصول إلى غايتنا. في هذه الحالة، أؤمن تماماً أنَّ الوسيلة الأكثر نجاعة تتمثَّل في رفض الخدمة العسكرية الإلزامية، هذا الرفض الذي تدعمه مؤسَّسات في بلدان متنوعة، وتساند أخلاقيَّاً وماديَّاً المعترضين الشجعان ذوي الضمير الحي.

هكذا نستطيع أن نعمل بأن تصبح مشكلة السلم مشكلة صعبة للغاية، ومعركة حقيقية تجذب إليها كلَّ من يتمتَّع بالقوَّة والإرادة، هي بلا شكَّ معركة غير متكافئة، ولكنَّها تظل معركة من أجل الحقِّ الحقيقيِّ للبشر ضدَّ حكوماتهم، حين تطالب مواطنيها بارتكاب الجرائم!

كثير من الناس الذي يدَّعون أنَّهم مع السلام، يرفضون المشاركة في صناعة سلام شامل باستنادهم على أسباب وطنية يعرضونها، نحن في الساعة الحاسمة لا نعتمد كثيراً عليهم، لقد أثبتت الحرب العالمية عدم جدِّيتهم بما فيه الكفاية.

أشكركم بمودَّة على إعطائي الفرصة كي أعبِّر عن آرائي هذه بصوت عال.

كلمة حول اجتماع الطلاب من أجل نزع السلاح:

كانت الأجيال الأخيرة قد نقلت لنا علماً، وتقنية متطوِّرة بشكل كبير، كهدية ذات قيمة عالية، أعطتنا الإمكانية من أجل تحرير وتحسين صورة الوجود، كما لم تفعل الأجيال السابقة.

أكثر من أي وقت مضى، يرتبط مصير البشرية المتحضرة بالقوى الأخلاقية القادرة على دعم هذا المصير، لهذا فالمهمة الملقاة على عاتق عصرنا ليست سهلة أبداً كالمهمات التي قامت بها الأجيال من قبل.

بلا شكٍّ، أصبحت حاجات البشر إلى المواد الغذائية، والسلع الاستهلاكية اليوم في متناول أيديهم لقاء ساعات أدنى للعمل، ولكن نتج عن هذا أن أصبحت مشكلة تقسيم العمل والمتوجات أكثر صعوبة.

لدينا جميعاً الشعور أنَّ اللعبة الحرَّة للقوى الاقتصادية، والجهد، والأهداف العشوائية، واللّا محدودة للأفراد من أجل القوَّة والثروة، لا تقود آلياً إلى حل ممكن لهذه المسألة، لكي نتجنَّب اختفاء القوَّة المنتجة الذي يهدِّدنا، ونتلافى إفقار شريحة ضخمة من الشعب؛ علينا أن نقوم بتنظيم منهجي للإنتاج، ولاستخدام اليد العاملة، وتوزيع المنتوجات.

لكن إذا كان «الأنا المقدَّس» اللاَّ محدود هو الذي يقود إلى النتائج النحسة في الحياة الاقتصادية، فإنَّ قيادته ستكون أسوأ بكثير في العلاقات العالمية المتبادلة.

إن لم يجد البشر قريباً وسيلة لمنع الحروب، سوف يصبح تطوُّر التقنية العسكرية التي نراها، وحياة الناس لا تطاق، ولكن إن كانت أهمية الهدف المطلوب هي المحور، فالجهود المبذولة حتَّى يومنا هذا من أجل تحقيق هذا الهدف هي جهود قاصرة فعلاً.

نحاول أن نحدَّ من الخطر عن طريق تحديد التسلُّح، وتبنِّي قواعد محدَّدة لقيادة الحرب، ولكنَّ الحرب ليست لعبة للمجتمع يلتزم فيها الشركاء بقواعدها بأدب ولطف.

عندما يتعلَّق الأمر بالوجود ذاته [نكون أو لا نكون]، فإنَّ القواعد والالتزامات تصبح بلا أدنى قيمة.

ـ وحده إلغاء الحرب بلا شروط ما يساعدنا على تدارك الخطر!

لا يكفي تشكيل محكمة دولية تصدر أحكامها النهائية، يجب أيضاً أن تقوم المواثيق بتقديم الضمان بأنَّ قرارات هذه المحكمة ستطبَّق كاملة على جميع البلدان، بلا هذا الضمان، سوف لن تملك الدول الشجاعة بنزع السلاح.

لنأخذ مثلاً لو أنَّ الحكومات [الأمريكية، الإنكليزية، الألمانية، الفرنسية] طالبت بشدة الحكومة «اليابانية» وذلك عن طريق التهديد بالمقاطعة الكاملة لبضائعها، طالبتها بالتوقُّف فوراً عن تصرُّفها العدواني المثير للحرب في «الصين».

أتعتقدون أنَّه قد يوجد في اليابان حكومة واحدة تأخذ على عاتقها خطورة هذا التصرُّف، وإلقاء البلد في مغامرة خطرة كهذه؟

لِمَ لا يحدث مثل هذا الأمر، ولماذا يصاب الفرد والدول على السواء بالذعر خوفاً على وجودهم؟

ذلك لأنَّ كلَّ واحد يبحث عن صالحه البائس المؤقَّت، ولا يريد أن يضعه في خدمة ازدهار المجموعة التي ينتمي إليها.

أكرِّر لكم أنَّ مصير البشرية اليوم، أكثر من أي يوم مضى، يتعلَّق بقواها الأخلاقية.

إنَّ الطريق مفتوحة أمام السعادة، والهدوء والصفاء للوجود يمرُّ عبر التضحية ونكران الذات، وفرض القيود على الأفراد.

ـ من أين نأتي بهذه القوى الضرورية من أجل تقدُّم كهذا؟

ـ نأتي به فقط من أولئك الذين يتمتَّعون بإمكانية تقوية أذهانهم بالدراسة وتحرير عقولهم منذ الصبا، لهذا ننظر نحن القدامى، ونأمل كثيراً بأفضل ما لديكم من قوى، أنتم الذين تقتربون من هدف لم نحصل عليه!

إلى «سيغموند فرويد»:

عزيزي السيِّد «فرويد»

هناك ما يدعو للإعجاب كيف تفوَّق الطموح السامي لديكم على جميع الطموحات الأخرى، لقد بيَّنتم بوضوح لا غبار عليه أنَّ غرائز الصراع والعدم لا يمكن فصلها عن غرائز الحبِّ والتوكيد على الحياة في الروح البشرية.

لكن تظهر بوضوح أيضاً في طرحكم المقنع الرغبة الشديدة بالوصول إلى هذا الهدف النبيل، وهو تحرير الإنسان من ويلات الحرب داخلياً وخارجياً، وهذا الطموح الأعلى الذي تطلَّع إليه كلُّ من تجاوز عصره وحدود بلده، كقادة للفكر والأخلاق، حول هذه النقطة يتَّفق الجميع منذ السيِّد المسيح حتَّى «غوته»، و«كانت».

ـ ألا يعني شيئاً أنَّ رجالاً كهؤلاء اشتهروا كقادة على مستوى العالم؛ رغم أنَّ إرادتهم بتنظيم العلائق بين البشر لم تتوصَّل إلى النتيجة المثالية التي أرادوها؟

أعتقد أنَّ الرجال ذوي الرفعة والشأن، والذين رسموا من خلال أعمالهم طريق التقدُّم في دائرتهم الضيقة المحدودة، لهم نفس الهدف والمثال، ولكنَّ تأثيرهم على التطوُّر السياسيٌ محدود للغاية.

يبدو أنَّ هذا الميدان [السياسة] الذي ينظِّم مصير البلدان مكرَّس بالضرورة لهؤلاء الرجال ذوي الطموح الجامح، والذين يفتقدون إلى الشعور بالمسؤولية.

يستمد الزعماء والحكومات مكانتهم سواء من القوَّة والعنف أو الانتخابات التي تقوم بها الجماهير، إنَّهم لا يمثِّلون الفئة الاجتماعية المتفوِّقة أخلاقياً وفكريّاً للبلاد.

اليوم، ليس للمثقف أيُّ دور أو تأثير «مباشر» على تاريخ الشعب، فتفرُّق المثقفين يعيق إسهامهم المباشر في حلٍّ المسائل الحاضرة.

ـ ألا تعتقدون أنَّ تجمعاً حرّاً لشخصيات فاعلة، خلاَّقة قدَّمت البرهان على قدرتها، وسموٌ أهدافها بالعمل أن تحمل الدواء الشافي؟

هذه المجموعة العالمية التي يجب أن يتواصل أعضاؤها دائماً من خلال آرائهم، ألا تستطيع باتخاذ موقف موحَّد عن طريق الصحافة، وبإشراف مسؤولين يوقِّعون في كلٍّ مرة مقالاتهم أن تمارس تأثيراً هامّاً، وصحيّاً في حل المسائل السياسية؟

من المؤكد أنَّ مجموعة كهذه سوف تعاني الكثير من الخلل والعلل في عملها بسبب ضعف الطبيعة الإنسانية، هو نفس ضعف الطبيعة الذي لعب دوره السلبيَّ في الأكاديميّات العلمية.

ـ مع هذا، ألا يجب أن نبذل الجهد من أجل هذا المشروع؟

بالنسبة لي، أرى أن محاولة كهذه هي واجب علينا ألاَّ نتجنبه.

لو استطاعت هـذه الجمعيـة الثقافيـة أن تـرى النـور، عليهـا أن تحرِّض الجمعيات الدينية من أجل الكفـاح ضـد الحـرب، إنهـا بهـذا سوف تقدِّم العون الأخلاقيَّ لشخصيات عدَّة تتمتَّـع بـالإرادة الطيبـة، ولكنَّها تجد نفسها مشلولة أمام طاعة مؤلمة من الآخرين.

أخيراً، أعتقد أنَّ مجموعة تتشكَّل من أفراد كهؤلاء سوف تحظـى بمكانة عالية بفضل إنتاجها الفكـريِّ، وسـتكون جـديرة بـدعم القـوى المناهضة للحرب في عصبة الأمم.

إلـيكم خاصَّـة أتوجَّـه بهـذه الفكـرة مـن دون الآخـرين، لأنَّ طموحكم وحكمكم النقـديَّ يـستند علـى شـعور عـال في المـسؤولية لبشر أكثر جديَّة من هؤلاء.

حول موضوع الخدمة الإلزامية:

مقتطف من رسالة

بدل أن نسمح «لألمانيا» بإدخال الخدمة الإلزامية حيِّز التنفيذ، علينا أن نمنع هذه الخدمة في جميع العالم! في الوقت الحاضر علينا ألاَّ نتسامح سوى بتسليح عمَّال الأجرة، والذي سيناقش تسليحهم هذا في «جنيف»!

هذا الأمر ينطبق على «فرنسا» أيضاً، لأنَّها أكثر الدول معارضة لتسليح ألمانيا.

بهذه الطريقة نقضي على الجهد الفكري المشؤوم للثقافة العسكرية للشعب، وكذلك نمنع حرمان الفرد من حريَّته المرتبط مباشرة بهذه الخدمة.

أكثر من ذلك، سيكون أسهل بكثير على دولتين قررتا اللجوء إلى قرار المحكَّمين الذي يتضمَّن جميع المسائل الخلافية في علاقاتها المتبادلة، وذلك بتحويل المؤسَّسة العسكرية إلى مؤسَّسة مهنية مشتركة، وهذا سيعود بالفائدة على الجميع من حيث تخفيف الأعباء المادية، وجعل البلدين في حالة أمن مشترك.

إن تدبيراً كهذا سيؤدي شيئاً فشيئاً إلى إقامة تنظيمات أكبر، ومن ثمَّ إلى إنشاء «شرطة عالمية» يخفُّ دورها مع تنامي الأمن العالمي.

ـ أتريدون مناقشة هذا الاقتراح مع أصدقائنا؟

سوف لن أتشبَّث بهذا الاقتراح على وجه الخصوص، ولكن يبدو لي أنَّه من الضروريٍّ أن نتوصل إلى اقتراحات مادية، وملموسة.

إن محاولة الاحتفاظ بالقوى الدفاعية فقط لا يمكن له أن يعطي النتيجة العملية المرجوَّة!

فرنسا وألمانيا:

التعاون القائم على الثقة بين «فرنسا وألمانيا» لا يمكن له أن يتمّ إذا لم تتأكّد «فرنسا» أنّ عدواناً مسلحاً سوف لن يتمّ ضدّها! ولكن إذا كانت «فرنسا» هي التي تطالب بهذا الضمان، فسيكون صدى طلبها سيئاً في «ألمانيا».

مع هذا، يبدو لي ممكناً العمل على الشكل التالي:

تقترح الحكومة الألمانية نفسها على الحكومة الفرنسية باللُّجوء لعصبة الأمم حول اقتراح يتضمَّن النقاط الآتية:

1 ـ الخضوع لأي قرار يصدر عن مجلس التحكيم الدولي.

2 ـ العمل بشكل مشترك مع الدول الأخرى، أعضاء عصبة الأمم بكلِّ وسائلها المتاحة الاقتصادية والعسكرية ضدّ أي دولة تهدِّد السلام، أو تعترض على التسويات الدولية التي تصبُّ في مصلحة السلام العالمي.

حول مجلس التحكيم:

عملية نزع السلاح الممنهجة في وقت قصير ليست ممكنة سوى بارتباطها مع ضمان الأمن لكلِّ البلاد بشكل منفصل، هذا الضمان الذي يستند على مجلس تحكيمي دائم، مستقل عن الحكومات.

ثمَّ الالتزام غير المشروط من قِبَل الدول، ليس فقط بالقبول بقرارات هذه المحكمة، ولكن أيضاً بالمساهمة في تطبيق قراراتها.

أخيراً، إنشاء مجلس تحكيم خاص بكل قارَّة [أوربا ـ إفريقيا ـ أمريكا ـ آسيا وأستراليا ملحقة بإحدى القارات الثلاث].

بالإضافة إلى مجلس مشترك آخر للنظر في المسائل التي قد تقع بين هذه القارات.

عالمية العلم:

خلال الحرب، وعندما وصل العماء القوميُّ والسياسيُّ إلى أقصى مداه، أعلن «إميل فيشمر» الكيميائيُّ الشهير أمام جلسة للأكاديمية بكلٍ حماسة الكلمات الآتية:

ـ «أنتم لا تستطيعون شيئاً إزاء هذا أيُّها السادة، فالعلم كان وسيظلُّ عالمياً»!

هذا الشعور هو ما أحسَّ به، وهو ما عرفهُ كبار العلماء بشغف ووله، حتَّى في الظروف السياسية المعقَّدة إذ ظلُّوا منعزلين ضمن وسطهم الضيِّق مع زملائهم.

هذا الحشد الذي يملك حقَّ التصويت خان خلال الحرب وعلى كافة المستويات الخير المقدَّس الذي وُهب له، لقد ذابت الجمعيات الدولية للأكاديميات، ونُظمت المؤتمرات، وما تزال بطريقة تتيح لها استبعاد زملاء من بلاد كانوا على الطرف الآخر المعادي، اعتبارات سياسية فرضت نفسها، ولعبت دورها في إعاقة ظهور وجهات النظر الموضوعية من أجل تحقيق غاياتها العليا.

ـ ما الذي يستطيعه الرجال ذوو الإرادة الطيبة الذين لم ينساقوا وراء الأهواء؟

إنَّ المؤتمرات الدولية لا تستطيع هي الأخرى أن تفهم أغلبية العمال الفكريين، والمقاومة النفسية التي تعترض على إنشاء جمعيات علمية عالمية قادرة اليوم على الإطاحة بأقلية مشبعة بالعواطف السامية، والتي تعلو على ما هو مؤقت وطارئ.

إنَّ من يقف مع هذه الأقلية يستطيع أن يساهم بدوره في إنشاء جمعيات دولية، وذلك بإقامة علاقات حميمة مع علماء البلدان

الأخرى الذين يشاركونهم طرق التفكير، وأن يكونوا دائماً مستعدين للتدخُّل من أجل المصالح العالمية، قد يطول انتظار النجاح، ولكنَّه سيأتي بالتأكيد.

لا أريد أن أترك هذه الفرصة تفلت من يدي دون أن أعلِّق بكلِّ طيبة خاطر على أنَّه هناك مجموعة من الزملاء الإنكليز الذين أبدوا بكلِّ حيوية، خلال السنوات الصعبة والقاسية استعدادهم لدعم الجمعيات الدولية.

في كلِّ مكان، نسمع تصريحات أبشع من الآراء الفردية، على الفكر السليم ألاَّ يعيرها كبير اهتمام، وألاَّ يفقد أعصابه إزاء هذا الخطأ:

ـ «أعضاء مجلس الشيوخ أناس شجعان كرماء، ولكن مجلس الشيوخ غبي وجاهل»!

إذا كنت طافحاً بالأمل والثقة فيما يتعلَّق بموضوع التنظيم العالمي العام، فذلك لأنَّ هذا الأمل لا يعتمد كثيراً على حكم ونبل الشعور بقدر ما يعتمد على التأثير القسريِّ للتطوُّر الاقتصادي.

يستند هذا التطوُّر على العمل الفكريِّ، وعلى عمل العلماء ذوي الأفكار الرجعية، فهؤلاء بالرغم عنهم، سيساهمون بدورهم في خلق التنظيم العالمي.

لجنـة من أجل التعاون العالمي:

هذه السنة، وللمرة الأولى، استخلص القادة الـسياسيون النتـائج المنطقية التي تثبت أنَّ قارتنا يمكن لها أن تصل إلى ازدهارهـا المرجـوٍّ إذا توقَّف الصراع الكامن بين أشكال الدول التقليدية فيما بينها.

علـى الـنظم الـسياسية في أوربـا أن تلغـي بكـلٍ حـزم الحـدود الجمركية التي تعرقل نموَّها، هذا الهدف الأعلى لا يتحقَّـق فقـط مـن خلال الاتفاق بين الدول، بل بتهيئة العقول مسبقاً أيضاً.

علينا أن نبذل أقصى ما لدينا من جهد لكـي نـوقظ تـدريجياً بـين البشر شعور التضامن الذي لا ينضب، كما هو الحال بالنسبة للحـدود بين الدول، بمراعـاة هـذا الأمـر قامـت عـصبة الأمـم بتكـوين «لجنـة التعاون الثقافي».

على هذه اللجنة أن تكون تنظيماً عالمياً بشكل مطلق، بعيدة عـن كلٍ سياسة، تقوم بدور الصلة في جميع مجالات الحيـاة الثقافيـة بـين الدول المتحضرة التي وجدت نفسها معزولة بسبب الحـرب، إنَّ هـذه مهمة صعبة للغاية: لأنَّه يجب أن نعترف على مضض أنَّـه علـى الأقـلٍ في البلـدان المعروفـة أكثـر، نجـد العلمـاء والفنَّـانين ينـساقون وراء الاتّجاهات القومية الدنيئة مثل رجال الأعمال تماماً.

حتَّى الآن لم تجتمع هذه اللجنـة سـوى مـرتين في العـام، لكـي نجعل عملها أكثر فاعلية، قرَّرت الحكومة الفرنسية إنشاء ودعم معهـد للتعاون الثقافيٍ الـدائم بـدء تـوّاً عملـه، ههنـا نـرى لفتـة كريمـة مـن الحكومة الفرنسية التي تستحقُّ عرفان وامتنان الجميع!

من السهل علينا أن نهنئ، ونمجِّد، وأن نحتفظ بالصمت إزاء من يبكي ويتألم، أو من هو بعيد عن هذا الشعور.

ولكن بما أنَّ مهمَّاتنا لا يمكن أن تتطوَّر إلاَّ بالعمل المخلص الشريف، فأنا لا أخشى أن أضيف هذا النقد إلى التهنئة بولادة هذه المنظمة.

لديَّ كل يوم الفرصة لتوضيح أنَّ المشكلة الكبرى التي تقف حجرة عثرة أمام عمل مؤسَّستنا، تتمثَّل في انعدام الثقة في موضوعيَّتها السياسية، علينا القيام بكلٍّ ما يلزم من أجل تعزيز هذه الثقة، والكفُّ عن كلٍّ ما يؤدِّي بها إلى الاضطراب والتشوش.

إذا كانت الحكومات الفرنسية قد أنشأت ودعمت من مصادرها معهداً في «باريس» كجهاز دائم للمؤسَّسة، ووضعت مواطناً فرنسياً على إدارته فإنَّ هذا يعطي انطباعاً لدى الآخرين الذين ينظرون عن بعد أنَّ التأثير الفرنسيَّ سيكون هو المسيطر في نهاية الأمر.

هذا الانطباع ازداد قوَّة باستمرار إدارة المعهد من قِبَل مواطن فرنسي حتى الآن.

ومع أن هؤلاء الرجال الذين يشرفون على الإدارة هم في الحقيقة يحظون باحترام الجميع، وتقديرهم، إلاَّ أنَّ الانطباع لم يتأثَّر بهذا، وظلَّ على حاله!

أتمنَّى من كلِّ قلبي أن ينجح المعهد الجديد بتبادل العمل الدائم مع اللجنة، من أجل تقدُّم الأهداف المشتركة، والحصول على الثقة ورضا واستحسان عمال الفكر في جميع البلاد.

استقالة

رسالة إلى السكرتير الألمانيٍّ للّجنة:

عزيزي «ديفور فيرونس»:

ربما تكوًنون فكرة غير صحيحة عن طريقتي في رؤية الأشياء إذا لم أردَّ على رسالتكم اللطيفة، لذا أبعث لكم بهذه الرسالة.

قراري بعدم الذهاب مرة ثانية إلى «جنيف» يستند على التجربة التي مررت بها، واستنتجت أنَّ «الجمعية» لم تقم بتفعيل الإرادة الجادَّة من أجل تحقيق التقدُّم الرئيسي في مهمتها بتوطيد العلاقات العالمية، أظنُّ بالأحرى أنَّها جسَّدت مبدأ من وجهة النظر هذه، تبدو لي اللَّجنة عموماً أسوأ من عصبة الأمم.

أعتقد أنَّه يترتَّب عليَّ ترك اللجنة، لأنَّني أريد أن أعمل بكلٍّ قواي من أجل إنشاء مجلس عالمي للتحكيم والتسوية، تكون مكانته فوق الدول، لأنَّ هذا هو الهدف المنشود بالنسبة لي.

لأنَّ اللجنة قد أنشأت في كلٍّ دولة «لجنة وطنية» تقوم بدور الوسيط بين مثقفي هذه الدولة، وكرَّست نفسها في معارضة الأقليات ذات الثقافة الخاصة، فقد تخلَّت بملء إرادتها وتفكيرها عن وظيفتها بدعم هذه الأقليات الأخلاقيٍّ ضدَّ اضطهاد الثقافة، أضف إلى ذلك فيما يتعلَّق بالصراع ضد الشوفينية والروح العسكرية في التعليم في البلدان ذات النزعات الأنانية، فقد اتخذت اللجنة موقفاً باهتاً لم نسمع فيه الكثير حول جهودها في المجالات الهامة الرئيسية.

لقد أهملت اللَّجنـة علـى الـدوام دعمهـا الأخلاقـيَّ للتجمعـات والشخصيات التي وقفـت بـشكل حاسـم في مهمتـها لترسـيخ قـانون عالمي ضدَّ النظام العسكري.

لم تحاول اللجنة على الإطلاق الاعتراض علـى انـضمام أعـضاء تعرف اتجاهاتهم المناوئة للواجب الذي يترتَّب على اللجنة القيام به.

لا أريد أن أطيل عليكم أكثر بطرح حججي، لأنَّ هذه الإيضاحات كانت قد أوضحت لكم قراري.

من المؤكَّد أنَّني لا أضع نفسي مُتَّهمَاً، ولكنَّني فقط بيَّنت أسـباب موقفي، إذا ما بدا لي أمل يلوح في الأفق، سأتصرف بشكل مختلف، كونوا على ثقة من هذا.

حول مسألة نزع السلاح:

أصبح تحقيق خطَّة نزع السلاح صعباً بشكل خاص، لأنَّنا عامَّة لم نحسب حساباً للمشكلة الأهمِّ في هذه المسألة، فأكثر الأهداف لم تُعَالَجْ سوى بخطوات قصيرة، تصوُّروا مثلاً استبدال الديمقراطية بالمَلَكِيَّة المطلقة.

نحن في وضع نتبع فيه غاية لا يمكن تحقيقها بالخطوات القصيرة.

طالما أنَّ جميع الإمكانيات المتاحة للحرب لم تلغ، فإنَّ الدول لن تتخلى عن حقِّها بالتسليح الذي تراه مناسباً لكي لا تجد نفسها مهزومة في الحرب القادمة، لا نستطيع كذلك استثناء التربية العسكرية للشباب، وتثقيفهم بالمبادئ القومية الباطلة مع نموِّ الشعور بالحرب، طالما أنَّ استخدام هذا الشعور لدى المواطنين يصبُّ في مصلحة الحرب، إنَّ التسلُّح يعني التأكيد والتحضير ليس للسلام، بل للحرب.

لذا، لا يجب نزع السلاح تدريجياً، ولكن إمَّا دفعة واحدة وإلاَّ فلا!

إنَّ تحقيق تغيير عميق كهذا في حياة الشعوب يستلزم قوَّة أخلاقية متشدِّدة، وتحرُّراً واعياً من التقاليد المتجذرة بقوَّة.

كلُّ من يجد نفسه غير قادر، بلا شروط، على تغيير مصير بلاده خلال نقاشات، وقرارات المجلس العالميِّ للتحكيم، والتأكيد على هذا المصير بلا أدنى تحفُّظ فهو لم يجزم أمره بعد في تجنُّب الحرب: كلُّ شيء أو لا شيء!

لا نستطيع أن ننكر حتَّى هذه اللحظة فشل الجهود من أجل السلام، وذلك بسبب التسويات المنقوصة، والمشبوهة أيضاً.

لا يتم نـزع الـسلاح وضـمان الأمـن دون صـلات الآخـرين مـع بعضهم، وحده التزام جميـع الـدول باتخـاذ وتنفيـذ قـرارات عالميـة القادر على ضمان الأمن.

نحن في منعطف درب، وعلينا تترتَّب معرفة ما إذا كنَّـا سنمـشي في طريق السلام، أو في اتجاه القوَّة الوحشية الغير جدير بحضارتنا.

إنَّ الحريَّة الفردية وأمن المجتمعات من جهة، وخدمة البشر مـن جهة ثانية تدعونا إلى العمل، , إذ أنَّنا مهدَّدون بزوال حضارتنا:

ـ مصيرنا سيكون ما نستحقه فعلاً!

حول مؤتمر نزع السلاح لعام [1932]:

هل أقوم بمصارحة في الإيمان السياسي؟

إنَّ الدولة أنشئت من أجل البشر لا العكس، ونستطيع أن نقول الشيء نفسه عن العلم، تلك مقولات حفرها الذين يؤمنون بأنَّ الإنسان هو القيمة الأثمن للبشرية، أخجل من ترادادها لو لم تكن مهدَّدة بالوقوع في غياهب النسيان، خاصَّة في زمننا الطافح بالنظم والكلام المعاد.

أرى أنَّ المهمة الأكثر أهمية للدولة هي حماية الفرد، وتقديم الإمكانية له من أجل نموِّ شخصيته الخلاَّقة.

بهذا على الدولة أن تكون «خادمة» لنا، لا أن نكون عبيداً لها، ولكنَّها تسرق هذه القاعدة، كما تفرض علينا بالقوَّة الخدمة الإلزامية والقيام بالحرب، طالما أنَّ غاية عمل الخادم هذا ونتيجته هي قتل البشر في بلاد أخرى، أو إلحاق الضرر بحريَّتهم!

علينا أن نقدِّم الأضاحي والقرابين للدولة لدفع التطوُّر الحرِّ قدماً إلى الأمام، تلك جملة ربما نسمعها من الإنسان الأمريكيِّ، لا من الأوربيِّ، لهذا نأمل أن يجد الصراع ضدَّ الحرب مكانه ودعمه عند الأمريكيين.

لنتكلَّم الآن عن مؤتمر نزع السلاح.

- أيجب علينا عندما نتكلَّم عنه أن نضحك أم نبكي.. أم نأمل؟

تصوُّرا مدينة يسكنها شعب نزق، شرير، عديم الاستقامة، سنعاني ضيقاً ثقيلاً من الخطر الدائم على حياتنا ممَّا سيجعل التطوُّر المنظَّم لدينا مستحيلاً.

يحاول القضاء إذن إيجاد حل شاف لهذه الحالات المخجلة، مع أنَّ جميع الموظفين والمواطنين يرفضون نزع سكاكينهم من أحزمتهم.

بعد سنوات عدَّة من التحضيرات، يقرِّر القضاء معالجة المسألة ومناقشة الموضوع الآتي:

- ما حجم وحدَّة السكين لكي يسمح للمواطن بحمله في تجواله؟

ولأنَّ المواطنين لم يجدوا الوسيلة لمنع حمل السكين عن طريق القانون والشرطة، فالوضع لم يتغيَّر أبداً، إنَّ تحديد حجم وحدَّة السلاح المستخدم لا يفعل شيئاً سوى تصعيد الخلافات وفرض سيطرة القويِّ على الضعيف!

تفهمون جميعاً معنى هذه المقارنة، بلا شكٍّ لدينا «عصبة أمم» ليست سوى مكان للاجتماعات، وهذه «المحكمة» لا تملك أيَّة وسيلة لتنفيذ قراراتها، هذه المؤسَّسات لا تقدِّم الأمان للدول في حالة عدوان يتعرَّض له، إن لم تضعوا هذا نصب أعينكم، عليكم أن تحكموا باعتدال على »فرنسا« وأنتم ترونها ترفض نزع سلاحها دون تقديم ضمانات لأمنها.

إن لم نتَّفق على تحديد سيادة الدول المعنية، أي إذا لم يلتزم الجميع بالعمل المشترك ضدَّ الدولة التي ترفض علناً أو خفية حكم «مجلس التحكيم»، فإنَّنا سوف لن نستطيع التخلّص من حالة الفوضى والتهديد بشكل عام.

سيادة غير محدودة للدول المتخاصمة، وضمان الأمن بعدم تعرُّضها للهجوم على بعضها، شرطان لا يمكن لأيَّة براعة أو مكر تحقيقهما معاً، أو التوفيق بينهما.

- أعلينا أن نعاني كوارث جديدة لكي نحمل الدول على الالتزام بتنفيذ قرارات المحكمة العالمية المعترف بها؟

كلُّ ما حدث إلى الآن لا يبرر لنا الأمل من أجلِ المستقبل، ومع هذا على جميع أصدقاء الحضارة والعدالة بذل كل طاقاتهم لإقناع أقرانهم بضرورة علاقات عالمية بين الدول المعنية.

إنَّ المفهوم الذي نبخس فيه قيمة هذه المنظمة له أسبابه المبُرَّرة، ولكن مع استثناء القيمة النفسية والأخلاقية لها، إذ أنّنا لطالما أعلنا أنَّ نزع السلاح على المستوى الأخلاقيّ يأتي بدوره قبل نزع السلاح الماديّ!

نعلن أيضاً، وبحق، أنَّ العقبة الرئيسية الكبرى التي تواجه المنظمة العالمية هي «القومية، المتطرفة التي تتخفّى وراء أسماء جذّابة، ولكنّها في الحقيقة تسيء كثيراً إلى مفهوم الوطنية»، لقد اكتسب هذا الوطن في السنوات المائة والخمسين الأخيرة قوّة شريرة مؤذية جدّاً، ولكي نعطي اعتراضنا مكانه الطبيعي، علينا أن نلائم بين وجهتيْ النظر النفسية والتنظيمية بشكل متبادل.

هنا لا أعني فقط التنظيمات المرتبطة بمواقف تقليدية قائمة على العاطفة الخاصّة بها، بوجودها الماديّ، ولكن أيضاً التنظيمات الموجودة في حركة الفعل الحيويّ لشعور الشعوب وأحاسيسها.

تبدو لي القومية المتطرفة حالياً على كافة الأصعدة والمستويات في أكثر أسبابها قائمة على الخدمة العسكرية الإلزامية، والمفروضة على الجميع، بأسماء قد تكون ألطف مثل «الدفاع الوطني».

إنَّ الدولة التي تفرض على مواطنيها الخدمة الإلزامية مضطرة أيضاً أن تنمّي لديهم الشعور القوميَّ الذي يقدّم بدوره الأساس النفسيَّ الضروريَّ للموقف العسكري. لقد عزّزوا في مدارسهم، وعلى مرأى من عيون الشباب قوّتهم الهمجية.

إن وضع الخدمة العسكرية الإلزامية قيد التنفيذ، هو السبب

الرئيسيُّ للسقوط الأخلاقيِّ للعنصر الأبيض الذي يهدِّد جديّاً حضارتنا، بل وجودنا أيضاً، هذه اللعنة نجمت عن البركة الاجتماعية الكبرى للثورة الفرنسية، ومن ثمّ تبعتها في قليل من الوقت الدول الأخرى.

وعلى هذا أقول أنّه على من يريد الكفاح ضدّ الشوفينية والتعصُّب أن يقف في وجه الخدمة الإلزامية العسكرية، فالمواصلة القاسية التي قام بها معارضو الحروب، مدفوعين بأسبابهم الأخلاقيَّة تظلُّ أقلَّ مدعاة للخجل من مجمل حالات الإعدام التي تعرَّض لها شهداء الدين في الأزمنة الماضية.

ـ هل يمكن أن نضع الحرب فوق القانون كما فعل ميثاق «كولُّوج» بوضع البشر دون حماية تحت عجلات الآلة العسكرية للدول ذات العلاقة؟

إذا كان مؤتمر «نزع السلاح» لم يضع في حسبانه الحدَّ من التكنولوجيا المنظمة، وإذا ما أدركنا من وجهة نظر بسيكولوجية علل الثقافة، علينا أن نبحث عن وسيلة نجد فيها طريقة لرفض الخدمة العسكرية: إنَّ تصرُّفاً له هذه الطبيعة سيلاقي صدى أخلاقياً كبيراً.

أريد الآن أن ألخِّص وجهة نظري:

إنَّ فقرة حول خفض التسلُّح لا يؤدي إلى نتيجة ولا بشكل من الأشكال.

يجب وضع قوَّة تنفيذية تحت تصرُّف المجلس التحكيميِّ القسريِّ معتمدة من جميع الدول المُشَاركة، والتي نفَّذت عقوبات اقتصادية وعسكرية ضدَّ الدول التي خرقت السلام.

علينا مقاومة الخدمة العسكرية الإجبارية، المركز الرئيسيُّ للقومية الشِّريرة، بمعونة أصحاب الضمائر النقية على مستوى العالم كله.

في الخاتمة، أحيل القارئ إلى كتاب «الودفيغ بوير»: [غداً، الحرب مرّة أخرى] الذي يُعالج المسائل المطروحة هنا دون أفكار مُسبَقة، وبكثير من العناية والذكاء البسيكولوجي.

كلُّ ما قدَّمه لنا فكر البشر الخلاَّق من مكافآت في المائة سنة المنصرمة كفيل بأن يؤمن لنا وجوداً سعيداً بلا هموم لو كانت خطَّة التقدُّم التنظيميّ قد ترافقت مع التقدُّم التقنيّ، بيد أنَّ النتائج الوخيمة التي ورثها جيلنا تشبه موسى حادَّة بين يديْ طفل في الثالثة من عمره، فملكية وسائل الإنتاج المتطوِّرة قدَّمت لنا المصاعب والجوع بدل الحرية.

الآن، تقوم التقنية بما هو أسوأ، حين تقدِّم الوسائل لإفناء الجنس البشريّ، والمتوج الذي قدَّمه بالجهد والعَرَق عبر العصور، إنَّنا، أبناء عمر ما، ارتعشنا خوفاً أمام المشاهد التي رأيناها في الحرب العالمية، ولكنَّ العبودية المخزية التي عانى منها البشر في الحرب، هي عندي أكثر وحشية من الفناء نفسه!

ـ أليس من الفظاعة أن نقوم بأعمال إجرامية كجماعات نخجل منها كأفراد؟

قلائل جداً أولئك الذين وجدوا القوَّة الأخلاقية فاعترضوا: إنَّهم بمنظوري الأبطال الحقيقيون للحرب العالمية.

مع هذا، يظلُّ الأمل قائماً، إذ يبدو لي اليوم أنَّ زعماء الشعوب قد بدؤوا بالتحرُّك عموماً، وذلك برغبة جديرة بالاحترام لإلغاء الحرب.

إنَّ الامتعاض الذي نشعر به في قيامنا بالخطوات الأولى للأمام من أجل هذا الهدف المشرِّف نابع من التقاليد البائسة، والمتوارثة جيلاً بعد جيل، كمرض وراثي، وذلك نتيجة نظام التعليم، هي الثقافة العسكرية ونموُّها، هي من تقوم بهذا الدور، مثلها مثل وسائل

الإعلام التي تستجيب بكلٍ طاعة لأوامر الوسط العسكريٍّ، وأرباب الصناعات الثقيلة.

لا يمكن دون نزع السلاح إقامة سلامٍ دائم، وعلى العكس أيضاً، فإنَّ استمرار التجهيزات العسكرية حالياً سيقود حتماً إلى كارثة جديدة.

لهذا فإنَّ «مؤتمر نزع السلاح لعام [1932] سيكون حاسماً على مصير الجيل الحالي والجيل الذي سيليه».

حين نفكر في نتائج المؤتمرات السابقة حتَّى الآن سيكون من الواضح أنَّه يتوجَّب على كلٍ الرجال الواعين والمسؤولين أن يكرِّسوا كلَّ قواهم لتبيان الأهمية القصوى لمؤتمر [1932] لدى الرأي العام، وهذا لا يتمُّ إذا لم يكن وراء رجال الدولة إرادة السلامٍ عند الأكثرية في بلادهم، من أجل تنظيم هذه الأغلبية على كلٍ واحد أن يقوم بدوره بمسؤولية تامَّة، لكي يتمكَّنوا من التوصُّل إلى غايتهم الكبرى.

من المؤكَّد أنَّ المؤتمر سيفشل تماماً إذا جاء الأعضاء بتعاليمٍ نهائية كلٍ غايتها مسألة شكلية، يبدو أنَّنا انتبهنا إلى هذا لأنَّ اجتماعات رجال الدولة الثنائية المستمرة في الفترة الأخيرة انصبَّت على دعم هذه المسألة، وهي تعمل على تحضير الأرضية للمؤتمر، تبدو لي هذه الطريقة بالعمل مشجِّعة تماماً، لأنَّه عادة ما تناقش الاجتماعات الثنائية المسائل المادية المحسوسة بطريقة منطقية إذا لم يتدخَّل طرف ثالث يفرض اقتراحاته.

إذا تمَّ التحضير للمؤتمر بهذا المعنى، وإن لم تحدث مفاجآت، وإذا ما هيمنت الإرادة الطيبة لدى الجميع لخلق جوٍّ من الثقة المتبادلة، فإنَّنا والحالة هذه نأمل بنتيجة موفَّقة.

في مسائل هذا المدى الواسع، لا يتوقَّف النجاح على نفاذ البصيرة، ولا حتَّى الدهاء والحيلة، بل يتوقَّف على الاستقامة والثقة، إذ لا يمكن استبدال الجانب الأخلاقيِّ بالذكاء، هنا أرغب بأن أقول: «شكراً لله»!

لا يفيد أبداً أنَّ كلَّ واحد من معاصرينا يكتفي بالانتظار والنقد، عليه بالأحرى خدمة القضية بكلِّ ما يستطيع:

إنَّ مصير البشرية عامَّة سيكون ما تستحقُّه فعلاً!

«أمريكا» ومؤتمر نزع السلاح:

يعاني أمريكيو اليوم هموماً بحجم وضع اقتصاد بلدهم:

فالمسؤولون لا يألون جهداً بالقضاء على البطالة التي ترزح بلادهم تحت أعبائها، ولكنَّ الشعور بالتضامن مع مصير العالم، وخاصَّة مع «أوروبا»، وطنهم الأمّ، أخفُّ ممَّا هو عليه في الأحوال العادية.

لا يخرج الاقتصاد الحرُّ سليماً من الأزمات آلياً، يجب العمل على إيجاد مقاييس للتنظيم الدائم من قِبَل المجموع للتحقيق السليم لتقسيم العمل والسلع الاستهلاكية بين البشر، دون هذه الإجراءات يختنق اقتصاد البلد.

وكما أنَّ العمل ضروري لتموين حاجات الجميع، فقد أصبح في حالة متردية بسبب تطوُّر المناهج التقنية، ولأنَّ القوى القائمة على عملية الإنتاج لم تعد قادرة على إيجاد عمل للجميع، علينا والحالة هذه، إيجاد سلوك مُنَظَّم واع لاستخدام التقدُّم التقنيِّ في مصلحة المجتمع.

ولكن إذا كان الاقتصاد لا يستطيع الخروج من الفوضى دون هذا السلوك المُنَظِمِ الواعي، فالمشاكل السياسية العالمية هي الأحرى بحاجة له أيضاً، لحسن الحظ لم يعد هناك الكثير من الساسة الذين يعتقدون أن أفعال العنف، في صورة الحرب، هي الوسيلة المفضَّلة للبشرية لحلِّ المشاكل العالمية، ولكنَّهم ليسوا على المستوى المطلوب من الحزم للدفاع والتصرُّف الفعَّال ضدَّ الحرب، الأثر المريض لبقايا الماضي، علينا أن نفكِّر بوضوح في كلِّ هذا، وأن نتحلَّى بالشجاعة للمساهمة الفعَّالة بحيوية، وبالطريقة الأكثر فاعلية لتحقيق هذه الأهداف النبيلة.

على كلٍّ من يرفض الحرب التخلِّي عن بعض من سيادته الفردية لصالح المؤسَّسات العالمية، أن يكون جاهزاً في حالة صراع قد يقع هنا أو هناك، أن يخضع لمجلس التحكيم للمحكمة العالمية، أخيراً، عليه العمل لنزع سلاح جميع الدول، كما أشارت معاهدة «فرساي» المشؤومة، ولكن يجب أن نعترف أنَّه لن يكون هناك تقدُّم بهذا المعنى إذا لم نضع جانباً الثقافة العسكرية والوطنية، بمعناها العدائي.

ليس هناك من حدث في السنوات الأخيرة أكثر خجلاً بالنسبة للدول حالياً من فشل مؤتمرات نزع السلاح التي عقدت حتَّى الآن، لأنَّ هذا الفشل لم ينجم فقط عن مكائد رجال الدولة الطموحين ودسائسهم، والذين هم عديمو الذمَّة، ولكنَّه جاء أيضاً بسبب اللاَّ مبالاة، وضعف البشر في جميع البلاد.

إذا لم نفعل ما علينا القيام به، فإنَّنا سنقضي على كلِّ ما تركه لنا أجدادنا من خيرات.

أعتقد أن الشعب الأمريكي غير واعٍ للمسؤولية الملقاة على عاتقه من وجهة النظر هذه، فهم يفكِّرون بالطريقة الآتية:

ـ «لتُدَمَّر «أوربا» إذا مشت وراء غباء وشراسة سكّانها، إنَّ البذرة الصالحة التي زرعها «وليستا» قد نمت بشكل بائس في الأرض الأوربية الجدباء، نحن أقوياء بما فيه الكفاية، وواثقون من أنفسنا، ولا نريد التدُّخل من جديد بهذه السرعة في شؤون العالم الخارجي»!

كلُّ من يفكر بهذه الطريقة هو إنسان قصير النظر، وذو فكر واطئ، دنيء! فأمريكا ليست بريئة من بؤس «أوربا» فاسترداد ديْنها دونما حذر أو روية إدارية يعجِّل في الانهيار الاقتصاديِّ، ومن ثمَّ الأخلاقيِّ في «أوربا»، فهي بهذه الحالة تساهم في «بلقنة» قارَّتنا، وهي أيضاً شريك في انحطاط وضعف الأخلاق السياسية والثقافية المشبعة بروح الانتقام، واليأس، هذه الروح لن تتوقَّف على أبواب «أمريكا»، وهنا أستطيع أن أقول إنَّ الحرب ستمتدُّ، وتمتدُّ.. انظروا حولكم، واحذروا!

لا حاجة أن نضيف شيئاً: فمؤتمر السلام يمثِّل آخر فرصة لما صنَّعته الحضارة لنا، ولكم على السواء، إنَّ الأنظار والآمال تتجه نحوكم، أنتم الأقوى، والأفضل صحَّة منَّا نسبيَّاً.

السلم الفعّال:

أهنئ نفسي لسعادتي رؤية هذه الظاهرة السلمية التي نظمها الشعب «الفلمندي»، وأحسُّ برغبة جامحة أن أقول باسم من تحرَّك بغايته النبيلة، ومن حمل همَّ المستقبل، أن أقول لهؤلاء الذين ساهموا بهذه الظاهرة أننا نشعر بالوحدة معكم بهذه الساعة من الاستقبال، وصحوة الضمير.

علينا ألاَّ نتستَّر ونتخَّفى، حيث يصبح من المستحيل تصحيح الوضع البائس الذي يهيمن علينا دون الدخول في صراع قاس، ذلك لأنَّ عدد الذين حزموا أمرهم في الصراع قليل بالمقارنة مع الجماهير الحائرة والمتردِّدة في الوقوف بوجه الآلة العسكرية الهائلة، والتي يقودها بشر لا يتراجعون أمام أيَّة وسيلة للحصول على تأييد الجماهير لخدمة أهدافهم، عدوَّة الإنسانية!

يبدو أنَّ رجالات الدولة الحاليين يفهمون بجديَّة الحاجة إلى إقامة السلام الدائم، ولكنَّ التصاعد المستمرَّ للتسليح يثبت بوضوح أنَّهم ليسوا على قدرِ المواجهة مع دعاة الحرب، إنني واثق تماماً أن الخلاص لا يأتي إلاَّ من قلب الشعوب... إذا أرادت تجنُّب العبودية المذلَّة للخدمة العسكرية الإجبارية، عليها أن تناهض بكلِّ حزم هذه العبودية، وأن تقف في وجه التسلح العام الذي سيقود إلى الحرب.

طالما أنَّه سيكون هناك سلاح، فأيُّ شكل من أشكال الصراع مهما كان خفيفاً قد يؤدِّي إلى الحرب، إنَّ السلم إذا لم يكافح بفعالة وحزم أمام تسلُّح الدول سيظلُّ عاجزاً أمام آلة الحرب المدَّمرة تلك.

فليقف الوعيُّ، والحسُّ السليم للشعوب بكلِّ ما نملك من قوة، لكي نستطيع أن نتوصَّل في حياة الشعوب هذه إلى مرحلة عالية، تبدو لنا الحرب فيها خطيئة غير مفهومة، ارتكبها أجدادنا القدامى!!

رسالة إلى صديق للسلام:

يخطر لي، مدفوعاً بعظمة روحكم، وقلقكم على مصير البشرية أن أهنأكم بصمت ومهابة.

عدد الذين يرون بعيونهم، ويشعرون بقلوبهم قليل جداً، ولكن على قوَّتهم تتوقَّف معرفة ما إذا كان البشر سيقعون في حالة التخدير التي يبدو أنَّها اليوم تسحر الجماهير العمياء.

لتنظر الشعوب كم يتوجَّب عليها من التضحية، باستقلالها من «حرب الكلّ ضدّ الكلّ»، إن قوَّة الوعي والفكر العالميين بدتا ضعيفتين جداً على الدوام، والآن أيضاً تظهران بمظهر الضعف في «ميثاقهما» مع أسوأ عدو للحضارة.

هناك حالة توفيقية ليست سوى جريمة ضد الإنسانية المعذَّبة نضفي عليها صفة «حكمة سياسية»!

مع هذا لا يجب أن نتأسى من البشر، لأنَّنا نحن أيضاً بشر، وهناك عزاء لنا بوجود شخصيات مثلكم نراها اليوم واقفة، وفعَّالة.

رسالة أخرى:

صديقي العزيز الذي يشاركني طريقتي في التفكير:

عليَّ أن أعترف لكم بصدق وإخلاص أنَّ تصريحاً كهذا المرفق، ضمن شعب يستسلم لإجبارية الخدمة العسكرية وقت السلم ليس بذي قيمة على الإطلاق! أنا واثق تماماً من هذا على مواجهتكم أن تضع غايتها التحرُّر من الخدمة الإلزامية، إذ نعرف جيداً الثمن الغالي الذي دفعته «فرنسا» ثمناً لانتصارها عام [1918]، والذي ساهم بدوره في تعزيز قوَّة العبودية المخجلة.

عليكم ألاَّ تتعبوا في الصراع، إذ أنَّه لديكم حلفاء أقوياء في الوسط العسكريّ الفاعل الألماني.

إذا تشبَّثت «فرنسا» بالخدمة العسكرية الإلزامية، لا يمكن منع «ألمانيا» هي الأخرى من القيام بنفس الخطوة، بهذه الحالة سيكون عبد فرنسي مقابل عبدين ألمانيين، وهذا ليس من صالح «فرنسا» على الإطلاق؟

دون إلغاء الخدمة العسكرية الإجبارية، لا نستطيع القيام بتثقيف الشباب، وإضفاء روح المصالحة على حياة تسودها المحبَّة لدى الجميع.

أعتقد أن رفض الخدمة الإلزامية الناتج عن الوعيٍ إذا ما قام به [50,000] مطلوب للخدمة هذه سيكون قوَّة لا تقاوم، هنا لا يمثِّل الفرد المنعزل شيئاً هامَّاً، أو أن يتعرَّض أفراد مهمُّون للقتل تحت عجلات الآلة التي تنتصب خلفها ثلاث قوى «رائعة»: الغباء والخوف والجشع!

رسالة ثالثة:

سيِّدي العزيز:

لقد عالجتم في رسالتكم قضية هامَّة للغاية، صناعة السلاح هي في الحقيقة الخطر الأكبر الذي يهدِّد البشرية، فهي تمثِّل الدافع السيئ، والمحرِّك المشؤوم للقومية التي تمتدُّ وتنتشر في كلِّ بقاع العالم.

قد نستفيد بعض المكاسب من «التأميم»، ولكنَّ الحدَّ من الصناعة المؤمَّمة صعب جدَّاً، لنأخذ مثلاً صناعة الطيران أو الصناعات المعدنية، والكيمياوية... الخ!

فيما يتعلَّق بتصنيع السلاح والذخيرة وتصديرها، تهتمُّ «عصبة الأمم» منذ وقت طويل بإنشاء نظام مراقبة لهذه التجارة المخجلة، ولكن بنسبة نجاح منخفضة. سألت دبلوماسياً أمريكياً معروفاً العام الفائت:

لماذا لا يضعون «اليابان» تحت بند العقوبات الاقتصادية حتَّى تتخلَّى عن سياسة العنف؟ أجابني:

ـ «إنَّ مصالحنا الاقتصادية مع اليابان كبيرة جداً»!

أيُّ معونة نطلبها من بشر كهؤلاء في هذه الحالة؟!

تعتقدون أنَّ كلمة منِّي كافية للحصول على بعض النتائج في هذا المجال.. أيُّ وهم هذا؟

هم يمتدحونني طالما أنَّني لا أسبب لهم المشاكل، ولكن ما أن أحاول خدمة أهداف مزعجة لهم، حتَّى يبدؤوا بشتمي، والافتراء عليَّ كي يدافعوا عن مصالحهم، وهؤلاء الذين لم يتَّخذوا موقفاً محدَّداً من الصراع عادة ما يدفنون رؤوسهم في الرمال حذراً هو أقرب للجبن واللا مبالاة، هل جرَّبتم يوماً شجاعة مواطنيكم المدنية؟

إن الشعار الذي نطبِّقه ضمناً هو الآتي:

ـ «لا تقترب من هذه المسألة، ولا تتحدَّث فيها»!

كونوا على ثقة أنَّني سأقوم بفعل كلٍّ ما أستطيعه وكل ما هو ممكن لتنفيذ ما طرحتموه، ولكن ليس بالطريقة المباشرة التي تفكِّرون بها، فهي لا تقدِّم شيئاً ذا قيمة!

النساء والحرب:

أعتقد أنَّه علينا في الحرب القادمة إرسال النساء الوطنيات إلى الجبهة بدل الرجال!

سيكون هذا الحدث جديداً في المجال اليائس للوهم، وإلاَّ لِمَ لا نستخدم شعوراً بطولياً كهذا للجنس اللطيف بدل الهجوم على مدنيين دون دفاع بقصد المزاح والظرافة؟!

تأمُّلات في الأزمة الاقتصادية العالمية:

إذا كان هناك شيء يمكِّن الجاهل بالأمور الاقتصادية من التعبير عن فكرته حول طبيعة المشاكل الاقتصادية التي تدعو إلى القلق في الوقت الحاضر، فهو الحيرة اليائسة التي يبديها الأخصائيون المهرة في هذا المجال.

ما سأقوله ليس جديداً، وليس سوى التعبير عن قناعة رجل شريف ومستقل تحرَّر من جميع الأحكام المسبقة الطبقية والقومية، ولا يريد سوى خير البشرية، وتنظيماً متناسقاً قدر الإمكان للوجود البشري.

إذا كتبت حول الأشياء المختلفة كما تبدو لي بوضوح، كما لو كنت واثقاً من حقيقة تأمُّلاتي، فهذا ليس سوى وسيلة لشرح أفكاري المماثلة، وليس تعبيراً عن ثقة بنفسي تأسست بشكل سيء، أو ثقتي بنجاعة مفهومي البسيط حول الظروف المعقدة التي تحيط بنا.

حسب قناعتي، صفات هذه الأزمة تشبه الأزمة السابقة، ولكنَّها تقوم على ظروف ذات طبيعة جديدة تماماً، هي نتيجة للتطوُّر السريع لمناهج الإنتاج الاضطراري:

لا يحتاج إنتاج مجموع المواد الاستهلاكية الضرورية للوجود سوى إلى جزء من اليد العاملة المتوفرة، والتي لا غنى عنها، وهذا سيؤدي بالضرورة إلى البطالة في النظام الاقتصاديّ الحر.

لأسباب لست بصدد مناقشتها هنا، يضطر أكثر البشر تحت ظلّ هذا النظام للعمل بأقلّ أجر من أجل الحياة اليومية.

لدينا «مصنّعان» من نفس الفئة والوضع المهنيّ يقومان بتصنيع البضائع.

الذي لا يحتاج إلى يد عاملة معه يتطلّب في صناعته كثيراً من الوقت والجهد، ولكن ينتج عن عمله بالضرورة، في الوضع الراهن لمناهج العمل أنّ نسبة قليلة من اليد العاملة ستجد فرصتها في العمل، بينما سيجد الآخرون أنفسهم بعيدين عن عملية الإنتاج.

إنّ تصريف البضائع ونسب الأرباح ستنخفض، وستعاني المشاريع الفشل الماليّ، يتبع ذلك تصاعد جديد للبطالة، وانعدام للثقة في المؤسسات الصناعية، وبالتالي تزاحم جماهيري أمام أبواب البنوك التي تعمل كوسيط، وأخيراً تتوقف هذه البنوك عن الدفع بسبب سحب الودائع، وهنا يقع الركود الاقتصاديّ التام.

لقد حاولنا إضافة أسباب أخرى للأزمة وحدّدنا النقاط التالية:

- الإنتاج الفائض ـ وهنا يجب المعرفة والتمييز بين شيئين:

أ ـ الإنتاج الفائض بالمعنى الصحيح

ب ـ الإنتاج الفائض ظاهرياً.

أعني بالإنتاج الفائض بالمعنى الصحيح الإنتاج المتطوّر، والذي يتجاوز الحاجات، نتكلم بهذه الحالة عن صناعة السيّارات،

وزراعة القمح في الولايات المتحدة الأمريكية، مع أنَّ هذا الأمر مشكوك فيه أيضاً.

عادة ما نفهم من عبارة «الإنتاج الفائض» الحالة التي نكون فيها نسبة بعض البضائع أعلى من المستوى الذي يمكن أن تباع فيه في الظروف الصعبة، مع نقص هذه البضائع لدى المستهلكين: وهذا ما أسميه «الإنتاج الفائض ظاهرياً».

في هذه الحالة، ليست الحاجة إلى البضائع هي التي تسبب النقص لدى المستهلك، ولكنَّه ضعف القوَّة الشرائية لديه.

ولكنَّ هذا الإنتاج الفائض ظاهرياً ليس سوى تعبيراً عن الأزمة، ولا يخدم في شرحها: حين نضع المسؤولية على الإنتاج الفائض، فإنَّنا نقوم بما نطلق عليه في لغة الاقتصاد اسم «قياس دائر»، أي مصادرة على المطلوب [افتراض ما يطلب إثباته].

الإصلاحات، ضرورة تقديم دفوعات أوهنت البلاد المُدَانة واقتصادها، وأجبرتها على إغراق الأسواق الأجنبية بالبضائع للتخلُّص من الفائض للقضاء على المنافسة، وألحقت الضرر بالدول المَدِيْنة أيضاً.

ولكنَّ ظهور الأزمة في بلد محمي بالحواجز الجمركية «كالولايات المتَّحدة» يثبت أنَّ السبب الأساسيَّ للأزمة ليس هنا، وهذا ينطبق أيضاً على ندرة الذهب في البلاد المُدَانة بسبب الإصلاحات. تثبت ندرة الذهب أنها ليست السبب في الأزمة.

ـ الاستقرار، والحواجز الجمركية الجديدة، تصاعد النفقات الغير منتجة بسبب تصنيع السلاح.

ـ عدم الأمان السياسيّ الذي يواجه شبح الحرب: كلُّ هذه العوامل تصعِّد جديّاً من الموقف في «أوروبا»، دون أن تلمس «أمريكا» بشيء، إنَّ ظهور الأزمة في «أمريكا» يثبت إذن أن جميع هذه الأسباب التي ذكرنا ليست هي التي جاءت بالأزمة.

ـ إفلاس القوى العظمى مثل «الصين» و«روسيا»، إنَّ هذا الضرر الذي لحق بالاقتصاد العالميّ لم يؤثِّر كثيراً على «أمريكا»، فهو أيضاً ليس السبب في الأزمة!

ـ التصاعد الاقتصاديُّ لدى الطبقة الدنيا من المجتمع منذ الحرب ـ في حالة أنَّ هذه المقاييس موجودة فعلاً، فهو لا يعمل سوى على ضغط البضائع، لا وفرتها في الأسواق.

لا أريد أن أرهق القارئ بتعداد البراهين والإثباتات الأخرى التي تقود إلى سبب الأزمة، والتي هي ـ حسب قناعتي الأكيدة ـ ليست جوهر المشكلة على الإطلاق.

بالنسبة لي، هذا هو السبب الحقيقيُّ:

السبب الرئيسيُّ للبؤس الحاليّ هو التقدُّم التكنولوجيُّ الذي أدَّى إلى فصل قسم كبير من العمَّال الذين وجدوا أنفسهم بلا مورد، لهذا نجد كثيراً من النقد وجِّه إلى التقنية، والتحذير من عواقبها، إنَّ هذا غير معقول على الإطلاق.. إذن كيف نخرج من هذا المأزق بطريقة عقلانية؟

لو نجحنا بطريقة أو بأخرى بمنع القوَّة الشرائية للجماهير من الهبوط تحت أقلّ مستوى لها، سيصبح التبادل الاقتصاديُّ بحجمه، وطبيعته التي نشهدها حالياً، مستحيلاً.

هذا المنهج يبدو منطقياً وسهلاً، ولكنَّه يتضمَّن خطورة كبيرة أيضاً، لأنَّه من أجل تحقيق هذا النوع من الحالات يجب أن يكون الاقتصاد الموجَّه بشكل كامل، الإنتاج، وإصلاحات المتوجات الاستهلاكية الهامَّة تحت إشراف المجتمع، وهذا ما تحاول «روسيا» اليوم القيام به، وعلينا أن ننتظر لمعرفة ما ستؤدِّي إليه الأمور، سيكون حدساً، ومجرد تخمين، لا إرادة نبوية أن نجزم بما سيحدث هناك... ولكن في نظام كهذا، هل يمكن الحصول على إنتاج اقتصادي كالذي نجده في نظام اقتصادي يترك حريَّة المبادرة للأفراد؟ بمعنى آخر، هل يستطيع نظام بهذه الطبيعة أن يعمل دون استخدامه للعنف الذي يرفضه مواطنونا الغربيون؟

ألا يتَّجه هذا النوع من الاقتصاد الصارم والمركزيٍّ إلى الوقوف بوجه الجدَّة المفضلة في الإنتاج، وقيادة الاقتصاد المحميّ من قِبَل الدولة؟

علينا ألاَّ نترك هذه الاعتراضات تشكِّل أحكاماً مسبقة فنسدُّ الطريق أمام الأحكام الموضوعية!

شخصياً، أعتقد أنَّه بشكل عام من الأفضل إعطاء الأولوية للمناهج التي تحترم التقاليد والعادات فلا نضع العراقيل بينها، وبين الهدف الذي نسعى إليه.

أعتقد أيضاً أن العبور السريع من عملية الإنتاج الواقعة بين المجتمع ليست في مصلحة الإنتاج: يجب إعطاء الفرصة للمبادرة الشخصية، على شكل اتحادات إنتاجية، تلك الطريقة التي استبعدت من قِبَل الاقتصاد نفسه.

على كلِّ حال، يجب تحديد الحريَّة في مجالين اثنين:

ـ خفض ساعات العمل في الأسبوع بطريقة تقضي على البطالة بشكل منهجي، بهذه الطريقة علينا أن نتنبه إلى استقرار الأجور لدينا، بحيث تظلُّ القوَّة الشرائية موازية للإنتاج.

في المجال الثاني، حيث توصَّلت المؤسسات الإنتاجية إلى درجة الاحتكار على الدولة الإشراف على استقرار الأسعار لتحديد المؤسسات الرأسمالية بشكل منطقي، ومنع الاختناق المصطنع للإنتاج، واستهلاك هذا الإنتاج.

بهذه الطريقة، قد يصبح ممكناً إعادة التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، دون تحديد مضر بالمبادرة الفردية، وبنفس الوقت القضاء على السيطرة اللاَّ محتملة لمالكي وسائل الإنتاج [أرض، آلات] على «المأجورين» بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

الحضارة والتقدُّم:

لو أردنا تقييم الضرر الذي تلحقه الكوارث السياسية بتطوُّر الحضارة، يجب ألاَّ يغرب عن بالنا أنَّ الحضارة الراقية نبتة رقيقة تنمو ضمن شروط معقّدة، وهي لا تزدهر إلاَّ في أمكنة محدودة فقط.

هذا الازدهار يتطلَّب أولاً بعض الرفاهية لفئة من الشعب تعمل في مجال الأشياء التي لا ترتبط بمتطلبات المباشرة للمجتمع بالإضافة إلى أنَّ معنى قيمة التقاليد الأخلاقية، والإنتاج الفكريٍّ الثقافيٍّ للحضارة يظل حيَّاً في شريحة معينة من الشعب الذي يعمل من أجل سد احتياجات المباشرة للحياة، لكي يقدِّم للآخرين إمكانية العيش.

في السنوات المائة الأخيرة، كانت «ألمانيا» إحدى الدول التي تحقَّق فيها شرطا الحضارة السابقين، في المجموع العام كانت الرفاهية متوفرة بشكل متواضع، ولكنَّها كافية. وكان احترام روابط الثقافة قوياً.

على هذه القاعدة بنى الشعب قِيَمَه الحضارية التي تشكِّل جزءاً لا يتجزأ من التطوُّر الحديث.

هذا التقليد ظلَّ محافظاً على وجوده، عكس الرفاهية التي وجدت نفسها في وضع مضطرب، لقد فقدت البلاد مصادر الطاقة الأساسية التي كان يعمل فيها قسم كبير من العمَّال، وكذلك عانت البلاد فجأة نقصاً في الفائض الذي كان يعمل على خلق قِيَم فكرية للشعب، لأنَّه إذا اختفى هذا الشرط فلا تقليد ثقافي، في هذه الحالة سوف تذوي غراس الحضارة الأكثر خصباً.

للبشرية مصلحة كبرى أن تحمي نفسها من خطر كهذا، سوف تتخلَّص بكل ما تملك من قوَّة من بؤسها المؤقَّت، وسوف توقظ الشعور الجماعيَّ الأعلى المكبوت، والمُهْمَل من الأنانية الوطنية، هذا الشعور الذي يضع القيم الإنسانية بعيداً عن السياسة وحدود البلدان. سوف تؤكِّد البشرية لكلٍّ شعب شروط عمله التي ستسمح له بالوجود، وتضعه في حالة يستطيع بها خلق قيم الثقافة الفكرية.

الإنتاج والقوّة الشرائية:

لا أعتقد أنَّ الوسيلة لتجنُّب المشاكل الحالية تكمن في معرفة قدرة الإنتاج والاستهلاك، لأنَّ هذه المعرفة طالما تأتي متأخرة عامَّة، وأكثر من هذا، لا أرى أنَّ الضرر الذي لحق «بألمانيا» سببه النمو المفرط لوسائل الإنتاج، ولكن عجز القوَّة الشرائية لقسم كبير من المجتمع، حيث انزوت العقلانية جانباً في عملية الإنتاج.

تشكِّل قاعدة الذهب في النظام النقديِّ برأيي الضرر الأكثر سوءاً للسبب الآتي:

حصر هذا المعدن يؤدِّي آلياً إلى ضغط في حجم الائتمان، وفي وسائل الاعتماد المتداولة التي لا يستطيع ضغط الأسعار والأجور والتلاؤم معها بالسرعة اللاَّزمة.

أعتقد أنَّ الوسائل الطبيعية لتجنُّب هذه الأضرار هي الآتية:

1 ـ التخفيض الإجباريُّ من قِبَل القانون لساعات العمل حسب المهنة بطريقة يمكن فيها القضاء على البطالة بالتزامن مع تحديد الأجور لدينا، وذلك من أجل تنظيم القدرة الشرائية للجماهير حسب إنتاج السلع التي تمتلكها.

2 ـ تنظيم الكميات للأشكال النقدية، وحجم الاعتماد المتداول مع الضبط المستمرِّ لسعر المواد الاستهلاكية الوسطي، مع إلغاء لكل تغطية خاصَّة.

3 ـ التحديد المفروض بالقانون لأسعار البضائع من قِبَل المؤسَّسات الاحتكارية، أو التجمعات التجارية القائمة عملياً على التنافس الحر.

السياسة والسلم:

الإنتاج والعمل

جواب رسالة إلى «جيدرستروم».

سيِّدي العزيز «جيدرستروم»:

أشكر لكم هذه الرسالة التي أرسلتموها لي، والتي أثارت اهتمامي، لأنَّني شخصياً كثيراً ما فكرت بهذه الأشياء، وأريد هنا أن أطرح رأيي بلا تردُّد أو تحفُّظ.

أرى أنَّ الخلل الرئيسيَّ هو في الحريَّة اللاَّ محدودة تقريباً لسوق العمل، بالتزامن مع التقدُّم المذهل لمناهجه!

من أجلٍ إنتاج ما هو ضروري للحاجات الآنية لا نضطر لاستخدام كلّ اليد العاملة المتوفرة لدينا، ممَّا يؤدِّي إلى تفاقم البطالة، والتنافس الخطر بين أصحاب العمل، دون حساب لتقليص القوَّة الشرائية، ومن ثمَّ ظهور الاختناق الذي لا يطاق لكلٍّ تداول اقتصادي.

أعرف جيداً أنَّ الاقتصاديين، مؤيِّدي الحريَّة يدَّعون أنَّ كلٍّ تخفيض لليد العاملة يعوِّضه ازدياد في الحاجات، ولكنَّني لا أعتقد أنَّ هذا صحيحاً، وحتَّى لو كان صحيحاً، فإنَّ هذه العوامل ستقود دائماً إلى أنَّ قسماً كبيراً من البشر سيجدون أنفسهم يعانون القهر والبؤس في الحياة بطريقة غير طبيعية.

أعتقد مثلكم أنَّه يترتَّب على الشباب المشاركة في سوق الإنتاج، مع استبعاد كبار السنِّ عن بعض الأعمال [وهي ما أسميها الأعمال دون خبرة]، طالما أنَّهم قدَّموا، ولفترة طويلة في حياتهم، عملاً منتجاً للمجتمع.

أنا مع إلغاء المدن الكبرى، لا مع بناء مستوطنات في مراكز معينة، لبشر من فئات خاصَّة، للشيوخ مثلاً، إنَّ فكرة كهذه تبدو لي بغيضة، وشنيعة.

أعتقد أنَّه يجب تجنُّب تنوُّع قيمة النقد، وذلك باستبدال معيار الذهب بمعيار كميَّات محدَّدة للبضائع حسب حاجة الاستخدام العمليِّ لها، كما اقترح سابقاً، إن لم أكن مخطئاً، «كينيس»، إنَّنا بتبنِّي هذه الطريقة بالعمل، نجيز قليلاً من التضخم للنقد الحاليِّ، هذا إذا وثقنا أنَّ الدولة ستقوم فعلاً بالاستخدام الذكيِّ لهذه الهدية.

من وجهة نظري، يأتي الضعف في الخطَّة التي قدمتموها من الناحية النفسية بإهمالكم لها.

ليس من قبيل الصدفة أنَّ «الرأسمالية» لم تطوِّر الإنتاج فحسب بل المعرفة أيضاً.

إنَّ الأنانية والمنافسة [للأسف] تشكِّل قوى عليا على عواطف المصلحة العامَّة، والواجب.

يبدو أنَّه في «روسيا» لا نحصل حتَّى على رغيف خبز مقبول، قد أكون متشائماً جداً حول مشاريع الدولة ومؤسَّساتها، ولكنني لا أنتظر الكثير منها، إنَّ البيروقراطية تعني الموت للعمل البشريِّ. لقد رأيت وعشت أشياء قبيحة كثيرة، حتَّى في «سويسرا» التي تعتبر نموذجاً بشكل نسبي.

أميل إلى فكرة أنَّ الدولة يجب أن تكتفي بتنظيم وتحديد سوق العمل، عليها أن تفهم أن تنافس قوى العمل يلعب دوراً محرِّكاً ضمن

حدوده السليمة، بحيث يضمن لجميع الأطفال ثقافة متينة، وبنفس الوقت يقدِّم الأجور المرتفعة بما يكفي لحاجاتهم الاستهلاكية.

ولكنَّ وظيفة الدولة المُنظَّمة يمكن أن تكون حاسمة إذا ما كانت مقاييسها مطروحة من قبل رجال أكفَّاء، ومستقلِّين بوجهة نظرهم الموضوعيَّة، وحول هذه النقطة أنت على حق في ما ذكرته!

كنت أتمنى أن أستطرد أكثر في التفاصيل، ولكنَّه الوقت ما يعوزني لذلك!

حول موضوع الأقليّات:

يبدو أنَّ الأقليّات عامَّة، خصوصاً تلك التي تتميَّز بصفات فيزيولوجية مختلفة عن الأكثرية، تعيش حالة دنيا كوضع بشري.

إنَّ ما هو تراجيدي في مصير هؤلاء البشر ليس فقط الضرر الواقع عليهم بشكل فطري من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، ولكن أيضاً من الناحية النفسية باعتبارهم أنفسهم أدنى من المجموع العام وهي عقدة النقص الدونية.

هذا الجزء الثاني من الأذى هو الأصعب، ولكن يمكن تجاوزه من خلال العلاقات المتينة، والثقافة للأقلية التي تسير نحو هدفها.

بهذه الحالة يمكن تحرير الأقلية أخلاقياً ممَّا تعانيه.

إنَّ الجهد الواعي والدؤوب للسود الأمريكان يستحقُّ منَّا الاعتراف والتشجيع، في نظام هذه الأفكار التي نبحثها!

ملاحظات حول وضع «أوربا» الراهن:

ما يسم الوضع السياسيَّ الحالي في العالم، وخاصَّة في «أوربا» أنَّ التطوُّر السياسيَّ، من وجهة نظر مادية، أو فكرية ظلَّ فيما وراء الضرورات الاقتصادية التي تغيَّرت في وقت قصير نسبياً، فمصالح الدول المنفصلة يجب أن تخضع في هذه الحالة لمصالح المجموعات البشرية الأكثر اتِّساعاً.

إنَّ الصراع في سبيل استقرار هذا المفهوم السياسي الجديد صراع عنيف، لأنَّه ضدَّ تقاليد ضاربة في القدم، مع هذا، أرى أنَّ إمكانية وجود «أوربا» تتوقَّف على نجاحه.

أؤمن بكلّ قوّة أنّنا ما أن نتفهّم الأسباب ذات الإطار النفسيّ لهذه العراقيل، حتّى نجد الحلول اللاّزمة لهذه المشاكل.

لكي نخلق الجوّ الملائم، علينا بادئ ذي بدء تحقيق التواصل الشخصيّ لهؤلاء الذين يناضلون من أجل الهدف نفسه.

فلتعمل الجهود مجتمعة من أجل إقامة جسر من الثقة المتبادلة بين الشعوب.

نحن الورثة:

منذ زمن بعيد اعتقد البشر أنَّ التقدُّم الفكريٍّ والحضاريَّ لم يكن سوى ثمار لعمل الأجداد الذي ورثناه عنهم، وهم الذين قدَّموا لنا هذه الحياة المترفة التي نحظى بها.

ولكنَّ التجارب الأكثر قسوة لزمننا بيَّنت لنا أنَّ اعتقادنا هذا مجرَّد وهم ضار!

نرى أنَّ على الجهود الكبرى أن لا تكون نقمة علينا، بل نعمة للبشرية...

إذا كان للإنسان فيما مضى قِيَم اجتماعية حرَّرته بمعنى ما من أنانيته الشخصية، علينا الآن أن نطالبه بأن يتغلَّب على أنانيته الوطنية، والطبقية أيضاً، هذا فقط عندما يتوصَّل إلى المستوى العالي، سيكون عندها قادراً على الإسهام في تحسين مصير المجتمع الإنساني.

بخصوص هذا المطلب الأكثر أهمية في الوقت الراهن، يجد السكَّان في الدول الصغرى أنفسهم في وضع أفضل من الذين يعيشون في دول كبرى، لأنَّهم يقعون تحت إغراءات القوَّة والسيطرة السياسية والاقتصادية!

إن الاتفاق الذي تمَّ بين «هولندا» و«بلجيكا» لهو بمثابة شعاع وحيد ظهر في تطوُّر «أوربا»، في الفترة الأخيرة، وحدث يلقي على الدول الصغيرة دوراً أولياً، للتحرُّر من عبودية «العسكرة» المشينة!

الفصل الثالث

ألمانيا 1933

إعلان شهادة إيمانية:

على قدر ما أستطيع، لن أسكن في بلد إذا لم تَسُدْ فيه الحريَّة السياسية، والتسامح، والعدالة أمام القانون.

أعني بالحريَّة السياسية حرية التعبيرٍ كلاماً وكتابة عن قناعاتنا السياسية، وأقصد بالتسامح الاحترام لكلٍّ هذه القناعات لدى الفرد.

حالياً، لا تتوفَّر هذه الشروط في «ألمانيا»، إذ أنَّهم يلاحقون أنصار التعاون العالميِّ، وبينهم بعض الفنَّانين الذين يقفون بوجوههم.

مثله، مثل كلٍّ فرد، يمكن للنظام الاجتماعي أن يمرض أخلاقياً، خاصَّة في الأوقات الصعبة، وغالباً ما يكون مرض كهذا مبرراً في الأوطان! أتمنى أن تحظى «ألمانيا» قريباً بالصحَّة، وأن نقيم الأعياد والاحتفالات في المستقبل من وقت لآخر، للرجال العظام مثل «كانت» و«غوته»، على أن تسري تعاليمهما في حياة الشعب، وفي الوعيٍّ العام.

ـ آذار 1933 ـ

هذه المراسلة الآتية تُنْشر لأول مرَّة في نصِّها الأصليِّ الكامل، إنَّ ما نشرته الجرائد الألمانية كان منقوصاً على الأغلب، وقد حذفت منه مقاطع رئيسية كاملة.

مراسلة مع أكاديمية العلوم البروسية:

إعلان من الأكاديمية بشأن «أينشتاين» بتاريخ الأول من نيسان 1933.

قد علمت «أكاديمية العلوم البروسية» من الجرائد، بكلِّ حنق واستنكار بمشاركة «ألبرت أينشتاين» في الحملة التي نُظِّمت في «فرنسا» و«أمريكا» ضدَّ ما سمِّي بالوحشية في «ألمانيا».

إنَّ «الأكاديمية» تطالبه فوراً بإيضاحات حول هذا الموضوع، ثم أنَّ «أينشتاين» قد قدَّم استقالته من «الأكاديمية» بادعائه أنَّه لا يستطيع أن يخدم دولة «بروسيا» تحت الحكم الحالي، كذلك يبدو أنَّه ينوي التخلِّي عن جنسيته «البروسية» بما أنَّه مواطن سويسري، هذه الجنسية التي حصل عليها عام [1913] لقبوله في الأكاديمية كعضو عادي، يستطيع أن يمارس من خلالها وظيفته الأساسية.

تشعر «أكاديمية العلوم البروسية» بانطباع مكدِّر حول مشاركة «أينشتاين» في التحريض الأجنبيِّ الذي يمارس ضدَّ «الدولة البروسية» منذ سنين طويلة، رغم التحفُّظ الذي أبدته الدولة لهذا التحريض في المسائل السياسية والفكر الوطني.

لهذا السبب، لا تأسف «الأكاديمية» على مغادرة «أينشتاين» لها.

ـ عن «أكاديمية العلوم البروسية».

السكرتير الدائم

الأستاذ الدكتور «إرنست إيمان»

5 نيسان 1933 لوكوك بالقرب من أوستند

إلى أكاديمية العلوم البروسية:

علمت من مصدر موثوق تماماً أنَّ «أكاديمية العلوم» تحدَّثت في تصريح رسمي لها عن «مشاركة ألبرت أينشتاين» في الحملة الموجَّهة ضدَّ ما يسمَّى بالوحشية في «ألمانيا» في كلٍ من «فرنسا» و«أمريكا».

أعلن بهذه الرسالة أنّني لم أشارك أبداً بحملة من هذا النوع، وأضيف أيضاً أنّني لم أر في أي مكان ظاهرة من هذا النوع، كلّ ما قمنا به هو أنّنا اكتفينا بإعادة نشر وشرح التدابير والمظاهر الرسمية للأعضاء المسؤولين في الحكومة الألمانية، وكذلك في الخطَّة التي تتعلَّق بتدمير اليهود الألمان في المجال الاقتصادي.

إنَّ التصاريح التي أدليت بها للصحافة تشير إلى استقالتي من «الأكاديمية»، ونيّتي في التخلّي عن حقوقي كمواطن بروسي، وذلك لأنّني لا أريد أن أعيش في بلد لا يعترف لمواطنيه بالمساواة في الحقوق أمام القانون، ولا بحريّة الكلام والتعليم، بالإضافة إلى ذلك، فقد شرحت حالة «ألمانيا» الحالية، وهي حالة من الضلال والتيه العقليّ للجماهير، وقلت أيضاً بعض الأشياء حول أسباب هذا المرض.

في بعض الكتابات التي قدَّمتها إلى «الرابطة العالمية للكفاح

ضدَّ العداء للسامية»، والتي لم تُقَدَّم إلى الصحافة طالبت جميع الذين يتمتَّعون بالحسِّ السليم، والذين ظلُّوا أوفياء لمُثُل حضارة مهدَّدة أن يعملوا بكلِّ طاقاتهم لوقف استشراء هذا المرض العصابيِّ الذي تعيشه الجماهير في «ألمانيا»، والذي بدأ ينتشر في كلِّ مكان.

كان من السهل على «الأكاديمية» أن تحصل على النصِّ الصحيح لتصريحاتي قبل أن تعبِّر عن وجهة نظرها فيَّ كما فعلت!

إنَّ الصحافة الألمانية أعادت صياغة شروحي بطريقة مغرضة، ولكن لا يمكن انتظار شيء آخر غير هذا من صحافة «محجَّمة» مثلها حالياً.

أعلن أنَّني مسؤول عن كلِّ كلمة نشرتها. ولكن من جهة أخرى، ما زلت أنتظر من «الأكاديمية» طالما أنَّها أجمعت على ذمِّي والتشهير بي أمام الجماهير الألمانية، أن تأخذ تصريحي هذا إلى أعضائها، وكذلك إلى الجماهير الألمانية التي شهدت هذا الذمَّ والتشهير بي.

جواب من «الأكاديمية» بتاريخ 11 نيسان 1933

بهذا الشأن، تشير «أكاديمية العلوم» أن إعلانها المؤرَّخ في 1 نيسان لم يستند فقط على أقوال الصحف الألمانية، ولكنَّه استند بشكل رئيسي على ما قالته الصحف الأجنبية، وخاصَّة الفرنسية والبلجيكية التي لم يعترض عليها السيد «أينشتاين»، وأكثر من ذلك فقد اعتمد إعلانها أيضاً على تصريحه في «الرابطة العالمية للكفاح ضدَّ العداء للسامية»، والذي نُشر نصه الأصليُّ بكثافة، وفيه يهاجم عودة «ألمانيا» إلى بربرية العصور الأولى!

إنَّ الأكاديمية ترى أنَّ السيد «أينشتاين» الذي حسب تصريحه بالذات لم يتَّخذ أيَّ موقف من الحملة الموجهة في الخارج، لم يعترض على الاتهام والريبة التي أحاطت به، وهو الرجل الذي يتمتَّع بسمعة عالمية، بل على العكس، فقد صرَّح، وهذا في الخارج، بتصاريح استفادٍ منها ليس فقط أعداء الحكومة الألمانية، بل أعداء الشعب الألمانيٍ عامَّة.

عن أكاديمية العلوم البروسية:

التوقيع: هـ فون فيكر، والسكرتير الدائم »أيمان« برلين 7 نيسان 1933.

من«أكاديمية العلوم البروسية» إلى السيِّد الأستاذ «ألبرت أينشتاين» في «لايدن»، في رعاية السيِّد الأستاذ «أهرنفيست»:

كسكرتير متمرن حالياً للأكاديمية أفيدكم علماً بوصول إشعاركم بالتسليم المؤرَّخ في 28 آذار الذي استقلتم به من «الأكاديمية»، ولقد علمت كامل الهيئة للأكاديمية المنعقد بتاريخ 30 آذار بقراركم هذا.

إذا كانت «الأكاديمية» تأسف بعمق لهذه النهاية، فهذا الأسف يأتي من أنَّ رجلاً مثلكم يتمتَّع بكلٍ هذه القيمة العلمية الكبيرة، وهو

الذي قام بأنشطة كبيرة مع الألمان، وشارك طويلاً بأعمالنا، وكان يتمثل وجوده وفكره كألماني، نراه اليوم في الخارج، وسط بيئة تستخدمه وذلك لإساءة تقديره للشروط والأحداث الحقيقية في نشر أحكام كاذبة، وشكوك بلا أساس كي تدين شعبنا الألماني.

انتظرنا من رجل ظلَّ فترة طويلة معنا في «الأكاديمية»، دون النظر لمواقفه السياسية، أن يضع نفسه جانب الذين دافعوا عن شعبنا ضدَّ الموجة العدائية المتصاعدة.

كان سيكون مؤثِّراً موقفكم لصالح الشعب الألماني في الخارج في الوقت الذي يدعو للشبهة أحياناً، وأحياناً أخرى يثير الضحك والسخرية المرَّة، وبدل هذا فقد أتت شهادتكم في مصلحة الذين لم يكونوا أعداء للحكومة الألمانية فحسب، بل للشعب الألماني بأكمله، وكان هذا بالنسبة لنا حقّاً خيبة أمل قاسية ومؤلمة تدعونا إلى أن نبتعد عنك، حتَّى لو لم تقدِّم استقالتك.

- مع احترامنا العميق.

التوقيع: «فون فيكر».

إلى «أكاديمية العلوم البروسية» برلين:

تلقيت رسالتكم السريعة المؤرَّخة في 7 نيسان، وإنَّني لآسف بشدَّة على الحالة النفسية التي تعكسها!

أمَّا فيما يتعلَّق بالوقائع، فلا شيء لديَّ سوى أن أجيب بما يلي:

تأكيدكم على موقفي ليس سوى شكلاً آخر لما نشرتموه سابقاً، وفيه اتَّهمتموني بالمشاركة في الحملة الكاذبة ضدَّ الشعب الألماني، لقد أشرت سابقاً في رسالتي الأخيرة أنَّ هذه التأكيدات مجرَّد تشهير وادِّعاءات.

تقولون إنَّ «شهادة» منّي لصالح «الشعب الألمانيٍّ» كان سيكون لها أثر قوي في الخارج، على هذا أجدني مضطراً لأن أجيب بأنَّ شهادة كهذه تعني تخلياً كاملاً عن كلٍ أفكار العدالة والحريَّة التي قضيت حياتي في الدفاع عنها.

إن شهادة كالّتي تريدونها لم تكن لتصبُّ في مصلحة الشعب الألمانيٍّ، كما تقولون، ولكن على العكس تماماً، كانت ستدعم أولئك الذين ينزعون عن الشعب الألمانيٍ أفكاره ومبادئه السامية التي تضعه في مكانه الصحيح في الحضارة العالمية، بشهادة كهذه في الظروف الحالية، أكون قد شاركت بشكل غير مباشر بانحطاط المبادئ وتهديم جميع قيم الثقافة المعاصرة.

لهذا بالضبط، شعرت بأنَّني مضطر إلى الابتعاد عن «الأكاديمية»، وإنَّ رسالتكم تثبت لي كم كنت على حق بموقفي هذا.

ميونخ. تاريخ 8 نيسان 1933

من «أكاديمية بافاريا للعلوم» إلى السيِّد الأستاذ «ألبرت أينشتاين»:

في رسالتكم إلى «أكاديمية العلوم البروسية» وضعتم كثيراً من التبريرات لاستقالتكم.

إن «أكاديمية بافاريا للعلوم» التي اختارتكم منذ عدَّة سنوات كعضو هي أيضاً «أكاديمية ألمانية» مرتبطة بشكل وثيق مع «الأكاديمية البروسية»، والأكاديميات الأخرى: ممَّا ينتج أنَّ انفصالكم عن «أكاديمية العلوم البروسية» سيكون ذا أثر كبير في علاقتكم مع أكاديميَّتنا.

علينا بالتالي أن نسألكم كيف، بعد كلّ ما جرى بينكم وبين «أكاديميَّة العلوم البروسية» ستواجهون العلاقة مع أكاديميَّتنا!

ـ رئيس «أكاديمية بافاريا للعلوم».

إلى «أكاديميَّة العلوم البافارية»، ميونخ 21 نيسان 1933.

تأتي استقالتي من «الأكاديميَّة البروسية» بسبب أنَّني، في الظروف الحالية لا أريد أن أكون مواطناً ألمانياً، ولا أجد نفسي في موقع من التبعية لوزارة التعليم البروسية.

هذه الأسباب لا تستدعي قطع علاقتي مع «أكاديميَّة بافاريا»، مع هذا أقول أنَّني حين أريد حذف اسمي من لائحة أعضائها فهذا يعود إلى ظروف أخرى.

لدى الأكاديميَّات في الدرجة الأولى، رسالة ازدهار وحماية

الحياة العلمية للبلد، بينما في واقع الحال نجد أنَّ الجماعة العلمية الألمانية ـ حسب معرفتي ـ توافق دون معارضة على تجريد، وحرمان مجموعة معروفة من العلماء والطلبة الألمان، وبعض الشخصيات الذين يمتلكون إمكانية العمل القائم على أصول منهجية، من وسائل العمل والوجود معاً.

سوف لن أسمح لنفسي بالانتماء لجمعية تتبنَّى، ولو تحت ضغوط خارجية، مواقفاً كهذه.

جواب:

فكَّرت جدِّياً في كلِّ وجهات النظر، بالطلب الهامِّ بشكل رائع، والذي لامس كثيراً من الأشياء في قلبي.

جاءت النتيجة بعد تفكير أنَّني لا أملك الحقَّ بالمشاركة شخصياً بهذه المظاهرة الهامَّة جداً، وهذا يعود إلى سببين اثنين:

أولاً ما زلت مواطناً ألمانياً، وثانياً أنَّني يهودي!

فيما يتعلَّق بالسبب الأول يترتَّب عليَّ أن أضيف أنَّني ساهمت بفاعلية كبيرة في عمل بعض المؤسَّسات الألمانية كشخص موثوق به.

أن أرى بكلِّ أسف أشياء خبيثة تحدث في «ألمانيا» وأنَّه يجب أن أدين هذا الضلال الخطير الذي يأتي مع موافقة ورضا الحكومة الحالية، لا يعني أنَّني أستطيع شخصياً أن أشارك في تنظيم انبثق عن شخصيات رسمية لدول أجنبية.

لكي تتمكَّنوا من إعطاء الحجَّة الدامغة، أتمنَّى عليكم أن تأتوا بمواطن فرنسي ذي مكانة مماثلة، أي أن يكون على مستوى رجالات الدولة الألمانية، فيعترض على السلوكية السيئة للحكومة الفرنسية،

لأنَّه مثلما سيحكم على اعتراضي القائم على وقائع حقيقيـة، سيكون الحكم من قِبَل مـواطنيكم كفعـل خيانـة كـذلك. عنـدما وجـد «زولا» نفسه، في لحظة ما بقضية «درايفيس» مضطراً لمغادرة فرنسا لم يتَّخـذ موقـف الألمـانيٍ المنـاوئ، رغـم أنَّـه قـام بـنفس الـدور، وإلاَّ كـان سيخجل أمام مواطنيه.

إنَّ موقفاً كهذا سيكون له قيمة أكبر في معارضـة الظلـم والعنـف طالمـا يـأتي كـاملاً مـن شخـصيات تقـوم مـشاركتها علـى العواطـف الإنسانية الخالصة، وحبٌ العدالة، وهذه ليـست حـالتي أنـا شخـصياً الذي يعتبر اليهود جميعاً أخوة له!

إنَّ مصير اليهود المرسوم لهمٍ هو خطأ ضدَّه شخـصياً، علينـا ألاَّ نتَّخذ مواقـف ذاتيـة في قـضية تهمًّـه هـو نفـسه، علينـا انتظـار حكـم الآخرين الذين لا يملكون مصلحة شخصية مباشـرة بهـذا الاحتجـاج، تلك هي أسبابي، ولكنَّني أستطيع أن أضيف أيـضاً أنَّـني طالمـا كنـت معجباً بالتطوُّر العظيم للإحساس بالعدالة الذي يشكِّل الملامح الأكثـر جمالاً لتقاليد الشعب الفرنسي.

الفصـــل الرابــع

اليهودية

المُثُل اليهودية:

الرغبة الجامحة في المعرفة الخالصة، حبٌّ العدالة حتَّى التعصُّب، الجهد المستمر للحصول على الاستقلالية الفردية، تلكم هي محركات التقاليد للشعب اليهوديّ التي أحترمها وأقدِّرها، وأعتبرها هبَّة من القدر أنَّني أنتمي إلى هذا الشعب.

هؤلاء الذين يمارسون اليوم اضطهادهم ضدَّ مبادئ العقل والحريَّة الشخصية، ويريدون عن طريق القوَّة الغاشمة الخضوع لعبودية غبية للدولة، يرون فينا، وهم محقّون بذلك، أعداء لا يقبلون المصالحة!

لقد وضعنا التاريخ في مواجهة معركة قاسية، ولكنَّنا طالما نحن أوفياء في خدمة الحقيقة والعدالة والحريَّة سنستمر ليس في الوجود فحسب كأعرق شعب حي، ولكن في خلق قيم تشرِّف الإنسانية بفضل العمل المثمر الذي نقوم به.

أيمتلك اليهود طريقة خاصَّة في رؤية العالم:

لا أعتقد أنَّ اليهود يمتلكون رؤية خاصَّة في رؤية العالم بالمعنى الفلسفيِّ، فاليهودية كما أرى تتعلَّق حصراً بالوضع الأخلاقيِّ في الحياة، وللحياة، بل تبدو لي أكثر كجوهر لمفهوم الحياة للشعب اليهوديِّ، والذي كتب به جوهر القوانين تلك في «التوراة»، وتمّ شرحها في «التلمود». إنَّ «التوراة» و«التلمود» بالنسبة لي ليستا سوى الشهادات الأكثر أهمية لهيمنة المفهوم اليهوديِّ للحياة على الأزمنة الغابرة.

النقاط الرئيسية لمفهوم اليهودية للحياة هي الآتية:

الإصرار على الحقّ في الحياة لجميع الخلائق، فحياة الفرد ليست بذي معنى إن لم تعمل على تحسين وجود جميع الكائنات الحيَّة. فالحياة مقدَّسة، أي أنَّها هي القيمة العليا التي يجب على كلٍ ما عداها من قيم أن يكون تابعاً لها، إنَّ تقديس الحياة الفردية بشكلها الأعلى يوجب تمجيد كلٍّ ما يرتبط بالعقل، وهي صفة خاصَّة تنطبق على التقليد اليهودي.

إنَّ اليهودية ليست عقيدة إيمانية، فإله «إسرائيل» ليس سوى رفضاً للخرافة، والنتيجة الخيالية لدحضها، هي أيضاً محاولة لوضعٍ قانون أخلاقي ضدَّ الخوف، محاولة مؤسفة لم تنجح سوى قليلاً بتحقيق غايتها تلك.

مع هذا يبدو لي أنَّ التقليد الأخلاقيَّ للشعب اليهوديٍّ تحرَّر من الخوف في المعنى الواسع للكلمة، من الواضح أيضاً أنَّ «خدمة الله» أصبحت تساوي «خدمة الكائن الحيٍّ»، ممَّا أدَّى إلى أنَّ رجالات الشعب اليهوديٍّ، خاصَّة المسيح، والأنبياء، لم يكلّوا في صراعهم من أجل أهدافهم.

إذن لا يوجد لليهودية دين استعلائي [يتجاوز عالم المعرفة البشرية]، هي فقط تهتمُّ بالحياة المُعَاشة، المحسوسة ماديَّاً، ولا شيء آخر، هكذا يبدو لي أنَّك قد تشكُّ أنَّنا نستطيع أن نسميها «ديانة» بالمعنى الشائع للكلمة، إذ أنَّها لا تطلب من اليهوديٍّ إيماناً، بل تفرض عليه تقديساً للحياة في المعنى الذي يتجاوز قدرة الفرد العادية.

هناك أيضاً شيء آخر في التقليد اليهوديٍّ، وهو الذي ظهر بشكل غريب في كثير من المزامير في التوراة، تشبه إلى حد كبير حالة من

السكر الجَذِل، والدهشة أمام الجمال وروعة العالم الذي لا يستطيع الإنسان أن يفهم إلاَّ القليل منه، إنَّه الشعور الذي يستمدُّ البحث الحقيقيُّ منه قوَّته الفكرية، وهو الذي نسمعه في شدوِّ الطيور أيضاً. هنا تبدو العلاقة مع فكرة الله ببساطة طفل!

ـ ولكنِ هل ما قلته يحدِّد اليهودية؟ هل يوجد في مكان ما باسم آخر؟

لا يوجد في مكان آخر كلُّ ما قلته بحالته الخالصة، حتَّى ولا في اليهودية نفسها، حيث أنَّ المبالغة في العبادة تضفي على العقيدة الصافية ظلاماً، مع هذا أرى في اليهودية بعضاً من إنجازاتها الأكثر نقاءً وحيوية، خاصَّة حين نفطن إلى مبدأ تقديس الحياة فيها.

من صفات اليهودية أنَّها في قاعدة تقديس «السبت» تضع الحيوانات عمداً ضمن هذا التقديس، حيث نشعر بهذا المثال الذي يؤكِّد على تضامن الكائنات الحيَّة.

نتيجة لهذا التضامن لكلِّ البشر تعبِّر اليهودية عن نفسها أيضاً بكلِّ طاقتها، فليس من قبيل الصدفة أن تكون الاحتجاجات الاجتماعية قد جاءت في قسمها الأكبر من اليهود.

هناك جملة قصيرة قالها في «ولتر زاتنو» في يوم ما خلال حديث، تعبِّر جيداً عن وعي تقديس الحياة عند الشعب اليهوديِّ، هذه الجملة هي:

ـ «عندما يقول اليهوديُّ أنَّه ذاهب للصيد كي يتسلَّى، فهو يكذب»!

إنَّنا لا نستطيع أن نعبِّر عن وعي تقديس الحياة ببساطة، كما هي عند اليهود.

الشباب اليهوديّ

جواب على تحقيق:

من الضروريّ أن يهتمّ الشعب بالمشاكل والهموم اليهودية، وهو أمر يستحق الثناء أن يكرِّسوا أنفسهم لهذه المهمة في المجلة. هذا ليس فقط هام لمصير الشعب اليهوديّ الذي اقتصر على التعاضد والمساعدة المتبادلة، ولكن أيضاً بدعمٍ الروح العالمية المهدَّدة في علاقاتها بالوطنية ذات القلب المتصلِّب. هنا تكمن منذ عصور الأنبياء، إحدى الإمكانيات الرائعة لعمل شعبنا المشرَّد في أصقاع الأرض، والمتَّحد فقط بتقليده المشترك.

كلمة حول أثر البناء في «فلسطين»:

1ـ منذ عشر سنوات، كان لديّ شعور بالسعادة وأنا آتي إليكم للمرَّة الأولى، وذلك من أجل تطوير فكرة «الصهيونية» التي كانت آنذاك ترتكز على المستقبل.

نستطيع اليوم أن ننظر إلى الوراء برضا وارتياح، لأنَّه خلال هذه السنوات العشر، نفَّذت القوى المتَّحدة للشعب اليهوديّ في «فلسطين» أكثر ممَّا كنَّا نجرأ على الحلم به، إن عملاً عظيماً في البناء قد توِّج بنجاح كبير!

لقد تجاوزنا أيضاً التجربة القاسية التي واجهتنا بها أحداث السنوات الأخيرة، فكان عمل لا يتوقَّف مدعوماً بهدف نبيل، يسير ببطء، ولكنٍ بثقة نحو النجاح. إن التصريحات الأخيرة للحكومة البريطانية تمثِّل عودة إلى التقدير والتثمين العادل لقضيَّتنا: نحن نقدِّر هذه التصريحات بالشكر والعرفان.

بيد أنَّه يترتَّب علينا ألاَّ ننسى أبداً دروس هذه الأزمة: إن إنشاء جمعيات تعاونية لليهود والعرب ليس مشكلة إنكليزية، إنَّها مشكلتنا نحن!

نحن اليهود والعرب. علينا أن نتَّفق فيما بيننا حول حياة مشتركة نافعة، تسدُّ حاجات الشعبين، إنَّ الحلَّ العادل والمشرِّف للشعبين لهذه المهمة يشكِّل لنا هدفاً ليس أقلَّ حسناً وأهمية من تقدُّم العمل في البناء نفسه!

فكروا بهذا: تمثِّل «سويسرا» مستوى أكثر رفعة في التطور الحكومي من كلِّ الحكومات الوطنية، خاصَّة فيما يتعلَّق بالمشكلة السياسية حين يفترض أن يكون الحلُّ في دستور ثابت لمجتمع يضمُّ عدَّة مجموعات وطنية.

هناك أيضاً الكثير من العمل، ولكن على الأقل إحدى الأشياء التي كان «هرتزل» يريد تحقيقها بسرعة قد تمَّت: إنَّ العمل من أجل «فلسطين» ساعد الشعب اليهوديَّ على تحقيق تضامنه الذي لا شكَّ فيه، والتفاؤل الذي لا بدَّ منه لكلِّ منظمة تريد العيش. إنَّه اليوم المشهود لكلِّ فكر منفتح على الحقيقة.

ما نقوم به للعمل المشترك ليس فقط من أجل إخوتنا في «فلسطين»، ولكن من أجل سلامة وكرامة الشعب اليهوديِّ كله:

2 ـ لقد اجتمعنا اليوم كي نستذكر جماعة عريقة منذ عدَّة آلاف من السنوات، كي نضع نصب أعيننا مصيرها ومشاكلها!

إنَّها جماعة ذات تقاليد أخلاقية أثبتت في زمن الشدائد قوتها، وقدرتها الحيوية عبر العصور، وأنجبت رجالاً جسَّدوا معرفة العالم الغربيِّ، وكانوا المدافعين عن الشرف والعدالة الإنسانية.

طالما أنَّ هذه الجماعة في قلوبنا، ستظلُّ هي الخلاص للبشرية رغم أنَّها بلا تنظيم محدَّد.

منذ عشرات السنين أدرك رجال ذوو بصيرة نافذة من الطراز الرفيع، وعلى رأسهم «هرتزل» الذي لا ينسى، ضرورة إقامة مركز روحي يقوِّي وقت الأزمات الشعور بالتضامن: هكذا تطوَّرت الفكرة الصهيونية، وإقامة المستعمرات في «فلسطين»، لقد شهدنا نجاحها على الأقل في بداياتها الواعدة!

لقد لمست بسعادة ورضى تأثير هذا العمل على حالة الشعب اليهوديِّ الذي هو كأقلية وسط البلدان معرَّض ليس للمتاعب الخارجية فقط، بل للأخطار الداخلية ذات الطبيعة النفسية.

إنَّ الأزمة التي تعرَّضت لها عملية البناء في السنوات الأخيرة ناءت بثقلها على أكتافنا، ولم نتدارك حلَّها إلى الآن. مع هذا، فالأخبار الأخيرة تثبت أنَّ العالم، وخاصَّة الحكومة الإنكليزية تشعر، وتقرُّ بأهمية العوامل للقيمة الكبيرة التي تلعب دورها في جهودنا من أجل الهدف الصهيوني. لنوجِّه في هذه اللَّحظة تفكيرنا بالعرفان نحو رئيسنا «وايزمان» الذي ساهم بنجاح قضيَّتنا العادلة بكثير من الإخلاص والحذر.

لقد كان للمشاكل التي تجاوزناها نتائج حسنة علينا: فقد بيَّنت لنا مجدَّداً الصلة التي تربط مصير الشعب اليهوديِّ في جميع البلاد، وطهَّرت الأزمة موقفنا من مشكلة «فلسطين»، ونقتها من شوائب مفهوم القومية. لقد أعلَّنا بوضوح أنَّ غايتنا ليست إنشاء مجموعة سياسية، ولكنَّها حسب التقاليد اليهودية القديمة غاية ثقافية بالمعنى الواسع للكلمة. لكي نصل إلى هذه الغاية، علينا أن نحل بنبل وإخلاص وشرف مشكلة الحياة المشتركة مع أخوتنا، الشعب العربي. هنا لدينا الفرصة لكي نبيِّن ما تعلَّمناه في آلاف السنين من تاريخنا القاسي.

إذا سلكنا الدرب الصحيح، سوف ننجح، ونعطي المثال الأفضل للشعوب الأخرى، إنَّ ما نقوم به في «فلسطين» هو عمل من أجل كرامة، وسلامة كل الشعب اليهودي!

3ـ أسعد كثيراً بهذه المناسبة التي تتيح لي أن أتوجه ببعض الكلمات إلى شباب هذا البلد الأوفياء للأهداف المشتركة للجماعة اليهودية.

ألاَّ تيأسوا في مواجهة المشاكل التي تجدونها أمامكم في «فلسطين»، فأحداث كهذه هي بمثابة تجارب لابدَّ منها لاختبار قوَّة جماعتنا الحيوية.

لقد انتقدنا لأسباب وجيهة بعض مواقف الحكومة الإنكليزية، ولكن علينا ألاَّ نكتفي بهذا، بل يجب أن نستخلص الدروس من هذه الأحداث التي تمرُّ بنا.

علينا أن نعير الاهتمام الكبير لعلاقتنا مع الشعب العربيِّ، إذ أنَّنا بتنقية هذه العلاقات نستطيع أن نمنع مستقبلاً حدوث توتُّر خطير يمكن أن يعتبر خطأ كتحدٍ، وإثارة لحوادث عدائية. نستطيع أن نتفادى هذه المشكلة، لأنَّ عملية البناء التي نقوم بها كانت، ويجب أن تظل قائمة، تخدم المصالح الحقيقية للشعب العربيِّ أيضاً.

يمكن لنا أن نتوصل إلى حالة لا نكون فيها نحن والعرب مضطرين إلى استدعاء قوى الانتداب كاختيار لحلِّ مشاكلنا.

بهذا نكون قد سلكنا طريق الحكمة، واتَّبعنا أيضاً تقاليدنا التي بدونها لا معنى للشعب اليهوديِّ، ولا لقوَّته، ذلك لأنَّ هذه الجماعة ليست جماعة سياسية، ويجب ألاَّ تكون كذلك أبداً في المستقبل، إنَّها تقوم حصراً على العرف الأخلاقيِّ، وهي من هذا التقليد فقط تستطيع أن تستمدَّ قوى جديدة، وعلى هذا العرف أيضاً يقوم دليل وجودها بالذات.

4ـ منذ ألفي عام، لا يرتكز الحيز العام للشعب اليهوديِّ سوى على الماضي، فشعبنا المشرَّد في أصقاع الأرض لا يمتلك شيئاً مشتركاً سوى تقاليده الخاصَّة، تلك التقاليد التي حافظ عليها بكلِّ عناية

بلا شكٍّ استطاع بعض اليهود خلق قيم كبرى للحضارة، ولكن الشعب اليهوديَّ في مجموعه بدا وكأنَّه مجرَّداً من القوَّة الَّلازمة لتحقيق الإنتاج الجماعي.

الآن لم يعد الوضع كالسابق!

لقد أوكل لنا التاريخ مهمة كبرى نبيلة، وذلك على شكلٍ مساهمة نشطة في البناء في «فلسطين»، مجموعة من البشر تعمل بكل طاقتها من أجل الوصول إلى هذه الغاية. هكذا قدِّمت لنا الفرصة لبناء مساكن يعتبرها الشعب اليهوديُّ كلُّه عملاً له. إنَّنا نغذّي الأمل «نحو فلسطين» بإنشاء إطار عائلي، وحضارة وطنية مميَّزة، يترتَّب عليها إيقاظ «الشرق الأوسط» على حياة اقتصادية وثقافية جديدة.

الهدف الذي وضعه زعماء الصهيونية أمامهم لا علاقة له بالسياسة، بل بالحالة الاجتماعية والحضارية! على الجماعة في «فلسطين» أن تقترب من المثال الاجتماعيِّ لأجدادنا، كما ورد في الكتاب المقدَّس «التوراة»، وفي الوقت نفسه أن تصبح بناء للحياة الفكرية الحديثة، ومركزاً ثقافياً لكلِ يهود العالم. بهذا الشكل يكون تأسيس جامعة يهودية في «القدس» إحدى الغايات الأكثر أهمية للمنظمة الصهيونية.

لقد ذهبت في الأشهر الأخيرة إلى «أمريكا» للمساعدة في إنشاء القاعدة المادية لهذه الجامعة هناك. إنَّ النجاح لهذا الجهد كان طبيعياً، وبفضل النشاط الذي لا يكلُّ للأطبَّاء اليهود وملاحظاتهم الكريمة، نجحنا باستقبال وسائل كافية لتأسيس «كليَّة الطب» وبدأنا فوراً الأعمال التحضيرية لتحقيقها.

حسب النتائج الواردة حتَّى الآن، ليس لديَّ أدنى شك أنَّنا سنقيم في وقت قصير الأسس المادية الضرورية للكليات الأخرى.

يجب أولاً أن تُنظِّم كليَّة الطب كمعهد للبحوث، وأن تعمل على إصلاح وضع البلاد، وهذا هام جداً في البناء.

لا تظهر أهمية التعليم على نطاق واسع فوراً. وطالما وجدت مجموعة من العلماء القادرين، والمستعدين للعمل في الجامعة، فتشييد «كليّة الطب» أضحى أكيداً.

أدوِّن أيضاً أن اعتماداً مالياً دائماً وضع من أجل الجامعة، ليس مرتبطاً بعملية البناء. من أجل هذا الاعتماد الخاصٍّ تلقينا بفضل الجهد المتواصل للبروفيسور «وايزمن»، وزعماء صهاينة أمريكان، مبالغ هامَّة جاءت خاصَّة بكرم من الطبقة الوسطى.

أختتم كلامي بتوجيه نداء حار إلى يهود «ألمانيا» رغم الوضع الاقتصاديٍّ الصعب الحالي، أن يساهموا بكلٍّ قواهم ببناء منازل عائلية إسرائيلية في «فلسطين».

إن هذا ليس استجداء للإحسان والبرِّ، ولكنَّه مشروع يهمُّ جميع اليهود، يعدُّ نجاحه مصدراً للرضا أكثر نبلاً وشرفاً للجميع.

5ـ بالنسبة لليهود الآخرين، لا تمثِّل «فلسطين» قضية إحسان، أو مستوطنات. إنَّها مسألة ذات أهمية مركزية للشعب اليهودي .إن «فلسطين» أولاً ليست ملجأ ليهود الشرق، بل هي تجسيد للشعور الوطنيٍّ للجماعة اليهودية كلِّها، وقد استيقظت من جديد.

- هل حانت لحظة اليقظة، وتعزيز هذا الشعور في الجماعة؟ أعتقد أنَّ الجواب على هذا السؤال يجب أن يكون «نعم» بلا شروط، وذلك ليس فقط بالعاطفة العفوية، ولكن أيضاً بالأسباب القائمة على الوعي.

لنلق نظرة على تطوُّر اليهود الألمان في المائة سنة الأخيرة.

منذ قرن مضى، عاش أجدادنا، مع بعض الاستثناءات في «الجيتو»: لقد كانوا فقراء، بلا حقوق سياسية، معزولين عن الشعب الذي يعيشون معه، وذلك بسور واق من التقاليد الدينية، والأعراف الظاهرة في الوجود، خاضعين لأوامر وتعليمات شرعية، يقتصر تطوُّرهم الفكريُّ على أدبهم الخاص.

لم يتأثروا كثيراً بالحركة القوية التي جاء بها عصر التنوير ناهضاً بالحياة الفكرية في «أوربا».

ولكن هؤلاء الرجال الذين يعيشون بتواضع، والذين لا أحد يهتم كثيراً بأمرهم كان لهم فضل أساسي علينا:

كان كلٌّ واحد منهم ينتمي بكلٍّ جوارحه إلى الجماعة التي يتشكَّل منها، ويحسُّ أنَّه عضو ذو قيمة كبرى فيها، وهي لا تطالبه بتاتاً أن يغيرّ طريقة تفكيره الطبيعية.

نعم! لقد كان أجدادنا مضطهدين جسمياً وفكرياً بشكل محتمل، ولكنَّهم من وجهة النظر الاجتماعية، كانوا في وضع أخلاقي متوازن يحسدون عليه.

بعدها جاء العتق!

قدّم فجأة للفرد إمكانيات للتطوُّر المؤكَّد: استطاع أصحاب الحظوة أن يحصلوا بسرعة في الطبقات الاجتماعية والاقتصادية على مواقع عليا في المجتمع، وسرعان ما استوعبوا بلهفة المكتسبات السامية التي خلقها الفنٍّ والعلم الغربيان!

لقد شارك هؤلاء الرجال بحماسة ملتهبة بتطوٍّر هذين المجالين، وأوجدوا بأنفسهم قيماً دائمة. بهذا تبنُّوا أشكالاً خارجية للوجود من عالم غير يهودي، وانحرفوا بسرعة عن تقاليدهم الدينية والاجتماعية

الخاصَّة بهـم، لقـد تقبلـوا عـادات، وطـرق، وأفكـار لا علاقـة لهـا باليهود، ويبدوا كأنهم سيذوبون تماماً في الشعوب التي تأويهم، حيث أنَّهم بعد أجيال عدَّة تقريباً سوف لن يبقى أيُّ أثر ظاهر لهم كيهود! إنَّ ذوباناً تاماً للشعب اليهوديّ بدا لا مفرَّ منه في أوربا الوسـطى، وأوربـا الغربية!

ولكنَّ الأمر كان يسير بشكل آخر

يبدو أنَّه هناك غريزة وطنيـة، تختلـف حـسب العِـرق، تقـف في مواجهة انصهار بهذه الطبيعة.

إنَّ تبنِّـي اليهـود للغـة، والعـادات، وحتَّـى للأشـكال الدينيـة للشعوب الأوروبية التي يعيشون وسطها لم يستطيع التوَّصـل إلى خنـق الشعور لديهم بأنَّهم غربـاء، هـذا الـشعور الـذي يفـصل اليهـود عـن مضيفيهم الأوروبيين.

على هذا الشعور العفويّ تقوم في الحكـم النـهائي فكـرة العـداء للسامية، ولهذا فنحن لا نـستطيع أن نلغـي هـذه الفكـرة عـبر منـشور سياسي حتَّى ولو كانت النيَّة سليمة!

لا تريـد الوطنيـات أن تخـتلط. ولكنَّهـا ترغـب بإتِّبـاع سـيرها الخاص، ولا يمكـن التوصُّـل إلى نتيجـة مرضـية إلاَّ إذا تعاملـت مـع بعضها بالاحترام والتقدير المتبادل.

من أجل ذلك يترتَّب على اليهود الآخرين قبل كلِّ شـيء أن يعـوا وجودنا كقومية، وبأنَّنا نتلقَّى مجدَّداً هـذا الاحتـرام لأنفـسنا، والـذي نحتاجه من أجل وجود ذي فائـدة. علينـا أن نتعـرَّف مـن جديـد بكـلِّ قلوبنـا علـى أجـدادنا، وتاريخنـا، وأن نباشـر أيـضاً كـشعب المهمـة الحضارية التي تعزِّز شعورنا بانتمائنا إلى الجماعة. لا يكفي أن نـشارك

على المستوى الفرديّ بتطوُّر الإنسانية في مجال الحضارة، يجب أيضاً أن نقتحم المهمَّات ذات الطبيعة المشابهة، والتي وحدها مجموعة البلدان تستطيع حلَّها. بهذا فقط تستطيع اليهودية أن تمثّل حالة اجتماعية فعلاً. انطلاقاً من وجهة النظر هذه أطلب منكم فهم الحركة الصهيونية.

لقد أناط التاريخ بنا اليوم مهمَّة المشاركة فعلاً في تنظيم بلدنا الأصليّ، من ناحية حضارية، واقتصادية. لقد قام رجال أكفاء بكلّ حماسة وإخلاص بتحضير العمل، وكثيرون مثلهم مستعدون لتكريس أنفسهم له بشكل كامل.

فليقم كلٌّ واحد منكم بتقييم أهمية هذا المشروع، والمشاركة بنجاحه بكلّ ما يملك من قوّة!

الجماعة اليهودية:

ليس سهلاً عليَّ أن أنتزع نفسي من حياة التأمُّل الهادئة التي أعيشها، ومع هذا لم أستطع أن أتغاضى عن نداءات الجمعيَّتين [و. ر. ت] و[و. ز. ي] ، لأنَّها تقريباً نداءات شعبنا اليهوديٍّ المُضْطَهَد بعنف، والتي أردَّ عليها الآن.

إنَّ وضع جماعتنا اليهودية المشتَّتة في الأرض بمثابة مقياس للأخلاق الجديدة في العالم السياسيٍّ في النهاية، ما الذي ننتظره من وضع للأخلاق السياسية، والإحساس بالعدالة لمواقف دول من أقلية لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وكلٍّ ما لها من خصوصية يتمثَّل في تشبُّثها في الحفاظ على تقاليدها القديمة؟ يشير مقياس الأخلاق ذاك إلى تدنٍ في مستوى عصرنا، ويشهد بذلك مصيرنا الذي يتحمَّله بكل ألم، ولكن مهما كانت درجة التدنِّي، فهي تقوِّي ثقتي بأنَّه من واجبنا دعم، وتعزيز قوَّة الجماعة. إنَّ تقليد الشعب اليهوديٍّ يستوجب جهداً للعدالة والوعيٍّ لكي يقدِّما الخدمة لجيل الشعب في الحاضر والمستقبل أيضاً. في عصرنا الحديث جاء «سبينوزا» و«كارل ماركس» من هذا التقليد.

من يريد الحفاظ على التفكير السويٍّ عليه أن يهتمَّ بالجسم الذي يشكِّل التفكير جزءاً منه! إنَّ مؤسسة [و. ز. ي] تقدِّم الخدمة لشعبنا بالمعنى الحرفيٍّ للكلمة.. في «أوروبا الشرقية» تعمل هذه المؤسَّسة دون تعب لدعم الحالة الجسمية لشعبنا الذي يعاني هناك وضعاً اقتصادياً صعباً للغاية، بينما تقوم مؤسسة [و. ر. ت] بالتخفيف من الأذى والضرر الاجتماعيٍّ والاقتصاديٍّ الذي يكابده شعبنا منذ العصور الوسطى.

في زمننا هذا، نجد أنَّ أبواب المهن الإنتاجية مغلقة في وجوهنا، فقد وجدنا أنفسنا مضطرين للعمل التجاريِّ الخالص. إنَّنا لا نستطيع في بلاد الشرق مدَّ يد العون والمساعدة إلاَّ بتوفير أعمال أخرى جديدة يناضل شعبنا للحصول عليها. تلك هي المسألة الرسمية التي تعمل عليها مؤسسة [و. ر. ت] بنجاح.

إننا نتوجه إليكم أيها الزملاء الإنكليز الآن للمساهمة في هذا العمل الذي بدأه رجال رائعون! في السنوات الأخيرة، وحتَّى في الأيام الأخيرة كان يمكن أن نشعر بخيبة أمل قد تصيبكم أيضاً.

يجب ألاَّ تتشكُّوا من هذه النتيجة، ولكن عليكم رؤية هدف ما للوجود في هذه الأحداث، وأن تظلُّوا أوفياء لقضية المجتمع اليهوديِّ، أعتقد تماماً أنَّنا بسلوكية كهذه نقوم بشكل غير مباشر بخدمة الأهداف العامَّة التي علينا أن نضعها في المقدمة.

فكِّروا أيضاً بأن المشاكل والعراقيل ما هيٍ إلاَّ مصادر ثمينة للقوّة، وسلامة البشرية جمعاء، إنِ قَوَّتنا لن تتحقّق إذا غفونا على سرير من ورود، وإنَّني لأؤمن بكلٍّ ثقة بهذا!

لقد حظينا بمواساة بعض الأصدقاء. صحيح أنَّ عددهم قليلٍ، ولكن بينهم رجالات ذوو أهمية، عقول، شُعور بالعدالة عالية جداً، وهبوا حياتهم لهذه الغايات النبيلة للمجتمع البشري وتحرير البشر من الاضطهاد والمقت.

نحن سعداء بوجود رجال ليسوا بيهود كهؤلاء، أضفوا على هذه الأمسية قيمة خاصة. إنَّني سعيد برؤية «برنارد شو» و«هـ. ج. ولز» أمامي، وهما اللذان يتمتَّعان بمفهوم للحياة طالما شعرت أنَّني أنتمي إليه.

أنت يا سيِّد «شو» تستحقُّ كلَّ الحبِّ والتقدير من البشر في طريقك الذي سلكته كما الشهداء!

أنت لم تبشر بالأخلاق فحسب، بل سخرت من تلك التي يعتبرها الكثيرون مصانة، غير قابلة للنقد. وحده الذي ولد من أجل الفنِّ يستطيع أن يقوم بما قمت به. لقد أخرجت من صندوقك السحريِّ دمى لا تحصى تشبه البشر، ولكنَّها بدل أن تكون من لحم وعظام، كانت من عقول، وسخرية، ولطافة، ومع هذا، فهي بمعنى ما تشبه البشر أكثر منّا نحن، وإنَّنا لننسى تقريباً أنَّها مخلوقات طبيعية، ولكنَّها مخلوقات «برنارد شو»، أنت تجعل هذه الدمى ترقص في عالم صغير، تحرسه من الكراهية والحقد الذي يحيط به.

من يلقي نظرة موجزة على هذا العالم سيرى عالمنا الحقيقيَّ في يوم جديد، سيرى دُمَاك الصغيرة تنحلُّ في عالم البشر بطريقة يتَّخذون منها فجأة مظهراً مختلفاً عمَّا كانوا عليه من قبل، وحين نضع المرآة أمام أنفسنا جميعاً، سنرى أنَّك لعبت دور المحرِّر لنا، كما لم يفعل أيُّ واحد من معاصرينا، وأنَّك نزعت عن الوجود بلادته الأرضية، نحن جميعاً ممتنُّون لك من كلِّ قلوبنا، ونشكر القدر الذي أهدانا، وسط هذه الأمراض المضنية، محرِّراً وطبيباً للأرواح.

أشكرك شخصياً على الكلام الذي تحدَّثت به عن التشويه الذي لحق بي، وجعل حياتي قاسية لا تطاق!

أتوجه كذلك بالكلام إلى من يشاركوننا الهدف، فأقول لهم إنَّ الوجود والقدر لشعبنا يتعلَّقان أكثر بواجبنا في الانتماء بكلِّ وفاء وإخلاص إلى تلك التقاليد الأخلاقية التي ساعدتنا على المقاومة عبر آلاف السنين، رغم العواصف الهائجة والمضطربة التي داهمتنا.

ـ في خدمة الحياة تصبح التضحية شكلاً آخر للنعمة!

مؤسسة «إلى العمل يا فلسطين»:

بين جميع التنظيمات الصهيونية، هناك مؤسسة «إلى العمل يا فلسطين» التي تمارس أعمالها بشكل مباشر من أجل الطبقة الأغلى في البشر هناك، والتي تعمل بأياديها لتحويل الصحراء إلى مستعمرة مزدهرة، هؤلاء العمال هم الطبقة المختارة من بين جميع الشعب اليهوديّ، تلك الطبقة التي تتألف من رجال أقوياء، واعين، حياديين، إنَّهم ليسوا أياد عاملة دون ثقافة، ولا يبيعون عملهم لمن يدفع أكثر، هم رجال أحرار، مثقفون، ذوو عقول نيِّرة، حيث يكافحون سلمياً في زراعة أرض بائرة لمصلحة جميع الشعب اليهوديّ بشكل مباشر وغير مباشر.

إنَّ التخفيف قدر الإمكان من عناء وجودهم الصعب، يعني إنقاذ وجود إنساني ثمين، لأنَّ النضال من أجل بناء المستعمرة الأولى على أرض لم تُستَصلَحْ بعد بداية شاقة وخطرة، تمثِّل تضحية شخصية كبيرة.

وحده من رأى بأمِّ عينيه هذا العمل يعرف صحَّة هذا الكلام، ومن يساعد على تحسين أدوات هؤلاء العمَّال، فهو يدفع بالعمل قدماً إلى الأمام بطريقة فعَّالة.

هذه الطبقة العاملة هي أيضاً الوحيدة القادرة على إقامة علاقات سليمة مع الشعب العربيِّ، وهي المهمَّة الأكثر سياسية للصهيونية.

إنَّ الهيئات الإدارية في نهاية الأمر تأتي وتذهب، ولكنَّ العلاقات الإنسانية هي القول الفصل في حياة الشعوب.

كنتيجة لهذا يكون كلُّ دعم لمؤسَّسة «إلى العمل يا فلسطين» هو حالة تقدمية في «فلسطين» السياسة إنسانيةٍ مشرِّفة، وصراع فعَّال ضدَّ الموجات ذات «المحتوى القوميِّ» الأنانيِّ الذي يعاني العالم السياسيُّ عموماً فيه الآلام اليوم.

دور النقاهة اليهودية:

أجيب على رسالتكم بطيبة خاطر، تلك التي تسألونني بها أن أوجّه نداء إلى يهود «هنغاريا» من أجل «كيرن هاجيسود».

إنَّ العدو الأكبر لوعي الشعب اليهوديِّ وفضيلته، هو الانحلال المترهِّل، أي فقدان الصفات الذي يأتي نتيجة الغنى، والحياة المريحة، وأيضاً كشكل من التبعية الروحية لعالم غير يهوديّ يحيط بنا يتولَّد من استرخاء للجماعة اليهودية.

أفضل ما في الإنسان لا يمكن أن ينمو إلاَّ إذا استفادت منه الجماعة التي ينتمي إليها: كم هو كبير الخطر الأخلاقي الذي يغامر به اليهوديُّ عندما يفقد علاقته مع شعبه بالذات، في الوقت الذي يعتبره الشعب الذي يعيش معه أجنبياً، وغريباً؟

لا تولِّد حالة كهذه غالباً سوى الأنانية الحزينة والاحتقار!

إنَّ الاضطهاد الواقع حالياً على الشعب اليهوديِّ في الخارج قوي بشكل خاص، ولكن هذا البؤس هو تحديداً ما يلعب دور المخلِّص بالنسبة لنا! ينتج عنه تجديد لحياة الجماعة اليهودية لم يكن الجيل الماضي ليحلم به!

عبر هذا الشعور بالتضامن اليهوديِّ الذي استيقظ مجدَّداً، نفَّذ عمل بناء المستوطنات في «فلسطين» بقيادة زعماء مخلصين أوفياء وحذرين، وسط مشاكل بدت غير قابلة للحل، ولكن النتيجة جاءت مرضية جداً، حيث أصبحت على قناعة تامَّة بنجاح العمل على الدوام، إنَّ قيمة هذا العمل هامَّة جداً بالنسبة ليهود العالم أجمع.

سوف تصبح «فلسطين» مركزاً للثقافة لجميع اليهود، وملجأً للأكثر اضطهاداً منهم، وستصبح ساحة عمل للأفضل بيننا، ومثالاً يجمعنا، أخيراً، ستصبح شفاءً روحياً من أجل اليهود في العالم كله.

العداء للسامية والشبيبة الأكاديمية:

طالما أنّنا نعيش في «الجيتو» يظلُّ انتماؤنا إلى الشعب اليهوديِّ يمثّل مشاكل مادية، وأخطاء فيزيائية كثيرة، ولكنّه لا يمسُّ حياتنا الأخلاقية والنفسية بنفس الوقت.. مع «التحرر» تغيَّر هذا الوضع عامّةً، وخاصّةً عند الشعب اليهوديّ الذي بدأ يمارس أعمالاً ثقافية وفكرية.

وجد اليهوديُّ الصغير نفسه في المدرسة والجامعة، بتأثير من مجتمع ذي صبغة قومية معجباً بهذا المجتمع الذي يتلقّى منه غذاءه الفكريّ ويشعر بالانتماء إليه في الوقت الذي يتعاملون معه كفرد من نوع آخر غريب، مع بعض من الازدراء وقليل من النفور!

يجد اليهوديُّ الصغير نفسه مدفوعاً بالتأثير الإيحائيّ لهذه السلطة الأخلاقية دون أن ينظر إلى مصلحته الخاصة، هكذا يدير ظهره لشعبه اليهوديّ وتقاليده، ويعتبر نفسه منتمياً إلى جماعات أخرى بشكل نهائي، يحاول عبثاً أن يخفي عن نفسه وعن الآخرين أنّ هذه العلاقة ليست متبادلة أبداً.

هذا هو تكوين «الصابئ» اليهوديّ البائس اليوم! ما يعوزه ليس نقصان الكفاءة، ولا الرغبة الجامحة في التقدُّم التي خلقت منه ما هو عليه، ولكن ما يعوزه حقّاً هو ما ذكرته من قبل، وهو القوّة الإيحائية لوسط يتفوق عليه عدداً وتأثيراً. إنّه يعرف تماماً أنّ كثيراً من أبناء جنسه ساهموا في ازدهار الحضارة الأوربية، ولكن، مع بعض الاستثناءات، كم من هؤلاء يتصرّف مثله؟

مثلما يوجد في كثير من شرور النفس، هناك إمكانية للخلاص هنا، في المعرفة البيِّنة كطبيعة الشرّ وأسبابه.

علينا أن نعي بوضوح أنّنا من جنس مختلف، وأن نستخلص

النتائج من هذا الوعيً. هذا لا يعني أن نحاول التكافؤ من خلال قهر الآخرين والتغلب عليهم من خلال الأشكال المختلفة للاستنتاجات لأنَّ طريقهم في السلوك لا تستند على جذر علمي في العقل، علينا أن نشارك أكثر اجتماعياً، علينا أن نحقّق حاجاتنا الاجتماعية، أن نكوِّن مجموعاتنا الطلابية الخاصَّة، وأن نحافظ على تحفُّظ مهذَّب ولكنَّه حازم مع الآخرين من غير اليهود.

إنَّنا إذ نتصرَّف على هذا الشكل، فذلك لأنَّنا نريد العيش بطريقتنا الخاصَّة وليس بصورة مشوَّهة لعادات وأخلاق السكِّيرين والمسوِّفين الذين لا علاقة لطبيعتنا بهم، نستطيع أن نحصل على الحضارة الأوربية كمواطنين صالحين في الدولة، وأن نظلَّ في الوقت نفسه يهوداً أوفياء يحبون أصلهم، ويمجِّدون آباءهم.

لنتذكر هذا، ولنتصرف على هدي هذه الذكرى، في هذه الحالة سنجد مشكلة أن العداء للسامية، في طبيعتها الاجتماعية قد حُلَّت بالنسبة لنا!

رسالة إلى البروفيسور الدكتور «هيلباخ» وزير الدولة:

عزيزي السيِّد «هيلباخ»:

قرأت مقالتكم حول الصهيونية، ومؤتمر «زيوريخ»، وإنَّني لأشعر بحاجة ملحَّة بالردِّ عليكم بإيجاز، كأحد الأوفياء المخلصين لفكرة الصهيونية.

يشكِّل اليهود مجموعة بشرية ترتبط بالدم والتقاليد التي لا تمثِّل فيها الديانة الرابطة الوحيدة على الإطلاق، وهو ما أثبتته مواقف الآخرين نحو اليهود، إنَّني لم أكتشف نفسي كيهودي إلاَّ حين وصلت إلى «ألمانيا» منذ خمس سنوات، وهو ما بيَّنه لي الآخرون من غير اليهود.

تكمن مأساة اليهود في أنَّهم بشر من نوع ما للتطوُّر ينقصهم دعم

جمعية توحّدهم. إنَّ عدم الأمان الذي يعيشه الفرد الذي قد يصل إلى حدٍّ غير منطقي أخلاقياً هو نتيجة لهذا. لقد أدركت أنَّ سلامة هذا الشعب ليست ممكنة إلاَّ إذا اجتمع كلُّ يهود الأرض في جماعة نشطة، ينتمي إليها الفرد بكلِّ قلبه، فيتحمَّل الكراهية والإهانة التي تنهال عليه من كلِّ حدب وصوب!

رأيت التقليد المخزي لليهود لقيم الآخرين، وهذا المشهد أدمى قلبي.

لقد رأيت كيف أنَّ المدارس، والهجائيات، وعناصر ثقافة الأغلبية من غير اليهود تلغي كلَّ عاطفة مشرِّفة حتَّى لدى أفضل الزملاء لديَّ، وشعرت عندها أنَّ هذا لا يمكن أن يستمر هكذا.

فهمت إذن أنَّ عملاً جماعياً ينبع من قلوب جميع اليهود في العالم، يمكن أن يصحح وضع هذا الشعب، وهو العمل الكبير الذي تبنَّاه «هرتزل» الذي قام به بكلِّ طاقته، والذي بيَّن أنَّ مركزاً في «فلسطين» هو العمل الأهمُّ الذي يجب أن نركِّز عليه.

أنتم تسمُّون هذا باسم القومية، ولستم مخطئين بهذه التسمية تماماً، ولكنَّ جهداً لإنشاء جماعة بدونها لا نستطيع أن نحيا أو نموت في هذا العالم العدائيِّ نحونا يمكن أن يوصف بهذا الاسم البغيض.

على كل حال، هي قومية لا تضع القوَّة هدفاً لها، ولكن الكرامة والشرف والسلامة هي الهدف.

لو لم نكن مجبرين على العيش بين هؤلاء البشر الذين لا يطاقون، الأنانيين، القساة، لكنت أول من يرفض هذه القومية من أجل إنسانية كونية!

الاعتراض هو أننا إذا أردنا أن نصبح «وطناً» فهذا يعني أنَّنا لن

نظلّ مواطنين ألمان يرفضون طبيعة دولة متعصبة للأغلبية القومية. أمام التعصب سوف لن نكون محميين سواءٌ أسمِّينا «شعباً»، أم «وطناً»!

لكي أوجز، أقول أنَّني طرحت كلَّ هذا بطريقة فظَّة وفجَّة، ولكنَّني أعلم من خلال كتاباتكم أنَّكم لا تنظرون الشكل، بل تقدِّرون المعنى الذي يتضمَّنه!

رسالة إلى عربي:

15 آذار 1934

سيدي العزيز:

سعدت كثيراً بقراءة رسالتك التي تثبت لي في الواقع أنَّه هناك إرادة طيبة لديكم من أجل حلِّ المشاكل العالقة بكل شرف لشعبينا.

أعتقد أنَّ هذا المشاكل ذات جذور بسيكولوجية أكثر منها موضوعية، وأنَّه بالإمكان حلَّها إذا ما توفرت الإرادة من قِبَلَ الطرفين لهذا.

وضعنا الحالي غير مؤات، لأنَّ اليهود والعرب في مواجهة بعضهم البعض أمام قوَّة الانتداب كطرفي صراع.

هذه الحالة ليست مشرِّفة لبلدينا، ولا يمكن أن تتغيَّر إلاَّ إذا وجدنا طريقاً يجمع بيننا نحن الاثنين.

حين أقول لك الآن كيف أنظر إلى حلٍّ لهذه الحالة المزعجة للأشياء، أضيف بأنَّ هذه رؤيتي الخاصَّة التي لم أناقشها مع أحد. أكتب لك هذه الرسالة باللُّغة الألمانية، لأنَّني لست في وضع يؤهلني للكتابة بالإنكليزية، وأريد أن أتحمل وحدي هذه المسؤولية، أنت لديك حتماً إمكانية ترجمة هذه الرسالة عن طريق أحد اليهود الذين يشاركوننا هذا التقارب المُشْتَرَك.

تشكّلٍ وجهة نظري هذه «نصيحة خاصَّة»، يرسل فيها اليهود والعرب كلّ منهم أربعة ممثّلين عنهم، لا يكونون مرتبطين بأيّة منظمة سياسية، يتشكّلون كالآتي:

- طبيب تسميه نقابة الأطباء.
- قانوني تسميه دائرة القضاء.
- ممثّل عن العمال من قِبَل نقابة العمال.
- مثقّف يرشّحه المثقّفون.

هؤلاء الثمانية الأعضاء يجتمعون مرَّة في الأسبوع، ويلتزمون بعدم خدمة مصالح مهنهم أو أوطانهم، ولكنَّهم يستخدمون كلَّ معارفهم وقناعاتهم من أجل ازدهار كلّ الشعب في البلاد.

على نقاشات هذه الجمعية أن تظلّ سريَّة تماماً، دون كتابة أيّ تقرير حتّى ولو كان خاصّاً.

إذا اتّفق ثلاثة أعضاء على الأقل من كلّ طرف حول مسألة ما، يُنْشر القرار إذن، ولكن باسم الجمعية كلّها، إذا كان أحد الأعضاء ضدَّ هذا القرار يمكن أن يغادر الجمعية دون أن يفشي أسرارها.

إذا كانت إحدى الجمعيات الآنفة الذكر، والمنتخبة من قِبَل أعضائها غير راضية عن حلّ هذه اللَّجنة يمكن أن تستبدل ممثليها بآخرين غيرهم.

ومع أنَّ هذه اللَّجنة السرية لا تملك صلاحيات محدَّدة، فإنَّ الأشخاص يمهِّدون تدريجياً الطريق للسير نحو الحلول ويمكن لهذه اللَّجنة أن تمثّل المصالح المشتركة للبلاد أمام قوَّة الانتداب، متجاوزة بذلك السياسة الضيقة الخبيثة يوماً بعد يوم!

المسيحية واليهودية:

لو عزلنا اليهودية عن الأنبياء، والمسيحية / كما أشار السيِّد المسيح/ عن الملاحق التكميلية، وخاصَّة القساوسة، فسيبقى لدينا نظرية يمكن لها أن تشفي البشرية من جميع أمراضها الاجتماعية.

يجب على الإنسان ذي الإرادة الطيبة أن يحاول جهده، في وسطه الذي يعيشه فيه أن يحيي هذه النظرية الإنسانية الخالصة على قدر ما يمتلك من القوَّة، إنْ قام بهذا الجهد بإخلاص دون أن يتأثَّر أو يحبط بمعاصريه يمكن له بهذه الحالة أن يعتبر نفسه سعيداً، هو وجماعته أيضاً.

الألمان واليهود:

لو أردنا أن نقدِّر إنتاج اليهود الألمان، أو أن نفكِّر أنَّه إنتاج يتلاءم عددياً مع سكَّان مدينة وسط من حيث الأهمية، تغلبت على جميع العراقيل بفضل تفوُّقها الحضاري التقليديٍّ القديم، رغماً عن الإجحاف الذي عانوه، والأحكام المسبقة حولهم، في مواجهة شعب ألماني أكبر منها مائة مرة عدداً.

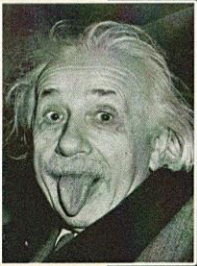
أن نفكِّر بهذا الشعب، بأنَّ أحداً يمكن له أن يرفض أن يقدِّره ويحترمه.

في هذه الأزمنة تحديداً التي يتمُّ فيها اضطهاد اليهود الألمان يجب أن نعلن أنَّ عالم الغرب هو عالم مؤسف إزاء الشعب اليهوديٍّ من جهة دينه أولاً، وثانياً حول مُثُلِه الأخلاقية الثمينة، خاصَّة عبر عصر النهضة للعالم الفكري اليوناني.

يجب ألاَّ ننسى أيضاً أنَّ تطوِّر اللغة الألمانية يعود إلى ترجمة الكتاب المقدس «التوراة»، ومن ثمَّ ترجمته من العبرية.

الذكرى التي تركها اليهود الألمان أيضاً في الأزمنة الحديثة للبشرية هي الصراع الذي قادوه من أجلها، والذي يقدِّم لنا اليوم كلَّ المواساة والعزاء، فلا يمكن للاضطهاد مهما كان، ولا للإهانة مهما بلغت أن تشوِّش على حدَّة الذهن حول سموِّ القِيمَ الأخلاقية، والفكرية التي يملكها الشعب بوفرة وغزارة...

الفهرس



ALBERT EINSTEIN

Comment je vois le monde

هذا الكتاب ليس مجموعة للمقالات، والخطب، والتصريحات التي نشرها «ألبرت أينشتاين»، بل هو بالأحرى نخبة منتقاة محدَّدة المعنى: إنَّه رسم الصورة الحقيقية لهذه الشخصية التي تجد نفسها اليوم على الرغم من نيَّتها السليمة ملقاة في دوَّامة الأهواء السياسية والتاريخ المعاصر.

هكذا عانى «أينشتاين» المصير الذي طالما قُدِّر للرجال العظام في التاريخ، لأنَّ صفاتهم وطرائقهم في رؤية الأشياء تبدو أمام الجماهير مشوَّهة تماماً! غاية هذا الكتاب هو أن نمنع حدوث مثل هذا الأمر! مقالة «عالمية العلم» يرجع تاريخها إلى عام 1922، بينما خطابه حول «مبادئ البحث» فكان عام 1923، في حين أنَّ «رسالة إلى عربي» فتاريخها يعود إلى عام 1930، وهو في جميع هذه المقالات والخطب يبحث في المجالات الأكثر تنوُّعاً، حيث الصلة الوحيدة التي تربط بينها هي وحدة الشخصية التي تبدو خلف جميع هذه التصريحات.

لقد آمن «أينشتاين» بالإنسان، بعالم سلمي يسوده التعاون، بالمهمَّة العليا للعلم..

كتابنا هذا يأتي دعماً لهذا الإيمان في عصر يفرض على كلِّ إنسان تفحُّص عواطفه، وأفكاره.

9 789933 429560